



الأدب المثمن

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الثالث



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



ح أحمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧/٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

أيها القارئ الكريم، لعلك تقلب هذه الصفحة مبتدئاً بها جولة بين صفحات كتابي «الأدب المثمن»، وذلك بعد أن قطعت رحلة طويلة نسبياً مع موضوعات الجزء الأول والثاني المتنوعة، والتي أرجو أنها نالت إعجابك، ووجدت فيها شيئاً من بغيتك الثقافية.

فعلى بركة الله ابدأ رحلتك مع هذا الجزء الذي يشتمل على عمل متواضع.

ولا تحرمني يا أخي ووالديك وجميع المسلمين من الدعاء الصالح، ومنّ علي بذلك فهو أجري منك الذي أرجو أن يصلني منك بظهر الغيب.

أما مطلبي الثاني فهو التجاوز عما تجده من أخطاء. أقول هذا مع يقيني بأن قناعتك بعدم تعمدي لأيّ خطأ ستوجد لي عذراً لديك. هذا والله الهادي.

أحمد عبد الله الدامغ
ص.ب: ٤٠١٣٨ الرياض ١١٤٩٩



دور الخبز في حياة الناس

دخل داود عليه السلام غاراً فيه رجل ميت عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان ملكت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وتزوجت ألف امرأة، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت إلى السوق قفيزاً من الدراهم في رغيف فلم يوجد. فبعثت قفيزاً من الدنانير فلم يوجد، فبعثت قفيزاً من الجوهر فلم يوجد، فدققت الجوهر فاستففتها فمتّ مكاني. فمن أصبح وله رغيف وهو يحسب أن أحداً على وجه الأرض أغنى منه فأماته الله كما أماتني.

قال حكيم: إذا كان خبزك جيداً، وماؤك بارداً، وخلُّك حامضاً، فلا مزيد عليه.

قيل: إنه كان على المائدة التي نزلت على بني إسرائيل كل البقول إلا الكراث، وعليها سمكة عند رأسها خل وعند ذيلها ملح وسبعة أرغفة على كل واحد زيتون وحب رمان.

روي عن سالم بن قتيبة أنه قال: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة.

قدّم إلى عبادة ـ واسمه أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ـ رغيف يابس، فقال: هذا نسج في أيام بني أمية ولكن محوا أطرازه.

دعا الخليفة العباسي محمد المهدي بميسرة التراس؛ فألقى إليه رغيفاً وإلى الفيل رغيفاً فأكل مائة رغيف وكفَّ الفيل عن التاسع والتسعين.



كان سليمان بن داود عليه السلام يأكل خبز الشعير، ويطعم الناس الحُوَّارَى.

وقف معاوية بن أبي سفيان على كنانية ـ نسبة إلى كنانة قبيلة من مضر ـ فقال: هل من قِرى؟ قالت: نعم. قال: ما هو؟ قالت: خبز خمير، ولبن مضير، وماء نمير.

قال الأوزاعي: قلت لمكحول: أين ترى لي أن أنزل؟ قال: انزل حيث يصفو لك الخبز، فإنّ الدّين مع الخبز.

سأل أعرابي فأعطاه باهلي رغيفاً صغيراً فلم يأخذه، وجاء برغيف كبير حسن، فقال: يا باهلة استفحلوا هذا الرغيف لخبزكم فلعلكم أن تنجبوا.

كان يقال للخبز: جابر بن حبة. وكان عمارة بن حمزة مولى ابن عباس يقول: يخبز في بيتي كل يوم ألف رغيف.

وللشعراء أقوال في الرغيف والخبز، ومنهم العباس بن الوليد الخياط المصيصي المعروف بالمشنوق؛ إذ يقول:

لأبـــي عـــيـــســـى رغـــيـــف
فـــيـــه خـــمـــســـون عـــلامـــه
فـــعـــلـــى جـــانـــبـــه الـــواحـــد
لـــقـــيـــت الـــكـــرامـــه
ثـــم لا ذاقـــك لـــي
ضـــيـــف إلـــى يـــوم الـــقـــيـــامـــه
وعـــلـــى الآخـــر ســـطـــر
نـــســـأل الـــلّـــه الـــســـلامـــه

ويقول آخر:

خبز شعير بغير إدام
عند فقير من الكرام

ألذّ عندي من ألف لون
عند غني من اللئام

ويقول عبدان:

رغيفك في الأمن يا رستم
تحل محل حمام الحرم

فللّه درك يا سيدي
حرام الرغيف حلال الحرم

○○○○○

الخبز من طعام النبي ﷺ

قالت عائشة رضي الله عنها: والذي بعث محمداً بالحق ما كان لنا منخل، ولا أكل النبي ﷺ وخبزاً منخولاً مذ بعثه الله إلى أن قُبض. قال: قلت: وكيف تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول: أف، أف.

روي عن أنس أنه قال: ما رأى رسول الله ﷺ رغيفاً محوراً حتى لقي الله.

قال أبو هريرة: ما شبع رسول الله ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا.

قالت عائشة: دخل رسول الله فرأى كسرة ملقاة؛ فأخذها ومسحها وأكلها. ثم قال: «يا عائشة أكرمي كريمتك؛ فإنها ما نفرت عن قوم فعادت إليهم».

قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان يجتمع لونان في لقمة في فم رسول الله ﷺ إن كان لحماً لم يكن خبزاً وإن كان خبزاً لم يكن لحماً. وعنها رضي الله عنها: ما شبع آل محمد من خبز البر حتى قبضه الله، وما رفع من بين يدي نبي الله فضل خبز حتى قبضه الله.

قال ابن عباس: أكرموا الخبز. فقيل له: وما كرامته؟ قال: لا ينتظر به الأدم، إذا وجدتم الخبز فكلوه حتى تؤتوا بغيره.

ذكر محمود الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار»: أن أبا المخفف عاذر بن شاكر البغدادي كان ظريفاً طيباً، وكان يركب حماراً وتركب جارية له حماراً وتحتها خرج، ويدور في بغداد فلا يمر



بسلطان ولا تاجر ولا صانع إلا أخذ منه رغيفاً أو كِسرة.

وذكر الزمخشري أيضاً أن محمقاً رأى زنجياً يأكل خبزاً حُوَّارَى، فقال: يا قوم: انظروا إلى الليل كيف يأكل النهار. وممن ورد في شعره ذكر الخبز والرغيف من الشعراء، محمد بن الجهم البرمكي؛ إذ يقول:

دع عـــنــك رســم الـــديـــار
ودع صـــفـــات الـــعـــقـــار

واتـــرك نـــعـــوت الـــزنـــانـــيـــر
فـــي خـــصـــور الـــعـــذارى

وصـــف رغـــيـــفـــاً ســـريـــاً
حـــكـــتـــه شـــمـــس الـــنـــهـــار

فـــلـــيـــس تـــحـــســـن إلا
فـــي وصـــفـــه أشـــعـــاري

وذاك أنـــــي قـــديـــمـــاً
خـــلـــعـــت فـــيـــه عـــذاري

وقال من هجا الحجاج:

أيـــنـــســـى كـــلـــيـــب زمـــان الـــهـــزا
ل وتـــعـــلـــيـــمـــه صـــبـــيـــة الـــكـــوثـــر

رغـــيـــف لـــه فـــلـــكـــه مـــا تـــرى
وآخـــر كـــالـــقـــمـــر الأزهـــر

ويروى أنه نزل بخالد بن عامر ـ أحمد بن عميرة ـ قوم فأطعمهم خبزاً بلبن ولم يذبح لهم فلقبوه ـ القعار ـ فقال:

أنـــا الـــقـــعـــار خـــالـــد بـــن عـــامـــر
لا بـــأس بـــالـــخـــبـــز ولا بـــالـــخـــاثـــر

الحب الصادق بين الزوجين
سياج منيع لعِرْضَيْهِما

إذا لم يكن الرباط الذي يربط الزوجين بعضهما ببعض مفتولاً بصدق المحبة ومطعماً بالوفاء والأمانة؛ فإن نقضه يكون يسيراً وقطعه وتمزيقه سهلاً.

وإذا لم يكن هناك ميثاق مضمر على المحافظة على القواعد الزوجية ومعنياً بحماية طهارتها من أدران الفساد الخلقي من كلا الزوجين؛ فإنه سرعان ما تُخَلْخِلْه المظاهر والمغريات التي تجر النفوس الضعيفة الإيمان إلى ويلاتها لتسبح تلك الطهارة في أوحال الفسق والفجور، وتلطخها بقذارة الخيانة الزوجية التي يأتي بأساليبها العصاة المفسدون للأعراض والقاتلون للشيم بوسائلهم التي يغلفونها بعامل الكرم حيناً، وبعامل العطف حيناً، حتى يستوثقوا بما يقدمونه من أشياء عينية، وغير عينية مغلفة بغلاف الهدية أو الهبة التي يجرونها من باب المبرة أو ما إلى ذلك من الأسباب التي يتيسر قبولها، ويحصل به استحسانها لتكون مفتاحاً لباب يدخل منه إلى حصن أي من الزوجين.

ولقد صور الشاعر طانيوس عبده في قصيدة له، عنوانها: «حكاية الفرو»، قصة عامر التاجر الذي هوى هنداً زوجة عمرو الفقير فاشترى لها فرواً ثميناً.

وعمرو الذي هوى ليلى زوجة عامر، ولكن ليس في يده ما يقدمه كمفتاح لتخريب بيت عامر. يقول من تلك القصيدة:



هوى عامر هنداً وهند حليلة
لعمرو وعمرو كان يشكو من العسر

وعمرو هوى ليلى وليلى طموحة
يعفون جهراً والتهتك بالسر

شرى عامر فرواً ثميناً لهند
وذا الفرو لا يقنيه غير بني اليسر

ولكن كيف يقدم ذلك الفرو لهند؟ لقد هداه شيطانه إلى أن يقول لعمرو: إن زوجتك هند قد ربحت في «اليانصيب» فرواً: فدونك إياه.

وقال له يا عمرو هند قد اشترت
نصيباً على فرو بقرشين من شهر

وقد ربحته اليوم وهو كما ترى
يساوي لدى التثمين عقداً من الدر

فما الذي حصل بعد ذلك؟ الذي حصل أن عمراً أخذ الفرو من عامر وقدمه هدية لزوجة عامر التي كان يهواها، ثم راح وهو في حالة سكر إلى عامر يبلغه بأن علاقته بليلى قد فرضت عليه إهداء الفرو إليها، ويطلب إليه أن لا يذكره لهند. يقول:

وفي غده وافى إلى بيت عامر
يدق عليه الباب قبل ضيا الفجر

فقال له: لا تذكر الفرو إنني
نفحت به ليلاي في ساعة السكر

والقصيدة طويلة وفيها مواقف تصويرية طريفة، وفي البيت الذي قبل البيت الأخير من القصيدة يقول فيه:

إذا لم يكن حب فلا تطلب الوفا
وعش مستباح العرض منهتك الستر

ارتباط القول بالفعل

إذا ما أردنا أن نبحث بصورة عامة في موضوع الأقوال التي لا تستند إلى أفعال، أو لا تسندها أفعال؛ فإن الأمر يطول ولا ينتهي، بل ربما لا يقف على صورة واحدة، أو نموذج واحد، وإنما نجد معظم الأقوال تصدر عن أناس لا يملكون الفعل، أو لا يستطيعون القيام به. إما لجبن في نفوسهم أو لضعف في إرادتهم.

ولو أن جميع الأقوال التي تصور بعض جوانب الحياة الاجتماعية وتحدد الأراء التي يجب اتخذاها، ينفذها أصحابها لأصبح كل صاحب رأي توجيهي سلطة، وبالتالي يكون القلة مأمورين، والكثرة آمرين، ولكن العكس في هذا هو الصحيح السائد، بدليل أن أصحاب الأقوال ذات المدلولات التنفيذية ومن يملكون تنفيذ الآراء والمقترحات الوجيهة يعدون لقلتهم على أصابع اليد في كل زمان ومكان، ومن هذه الحقيقة تولدت رتب وأسماء وكلمات زعامية؛ كالقائد والأمير، والزعيم، والرئيس إلى آخر هذه القائمة التي تعني تحمل المسؤولية والكفالة.

وتاريخ الشعراء يكشف لنا هذه الصورة، إذ كم من شاعر يقيم الدنيا ويقعدها على الورق فقط، وهو في طبعه أجبن خلق الله. وكم من كاتب بارع يفيض قلمه بالأحاديث عن سياسة الحروب، وهو لا يعرف الحرب إلا باسمها.

ويؤيدني في هذا الرأي الشاعر أحمد الصافي النجفي حيث ساق أمثلة على ذلك في قصيدة عنوانها: «فضل السقم»، منها قوله:



أطال عمري هذا السقم متصلا
لولاه كنت من الأقدام مفتقدا

والشعر لولا سقامي ما نطقتُ به
والشعر لولا سقامي لم يجد أحدا

فالشعر مهنة فدم عاجز وكل
أضحى إلى القول دون الفعل مستندا

يثني على المجد لكن عنه مجتنب
ويمدح الرشد لكن لم ينل رشدا

واستثنى النجفي من الشعراء الذين تحقق أفعالهم أقوالهم، عنترة بن شداد، ولعل النجفي لم يرد الإطالة في سرد أسماء من كان لهم رأي شعري وفعل بطولي معاً فاكتفى بالإشارة إلى عنترة كنموذج لمن يقول ويفعل، يقول في ذلك من نفس القصيدة:

واستثن لي شاعر الفرسان عنترة
لمّا غدا قوله بالفعل متحدا

ومنها قوله:

شتان ما بين من يشدو بفعلته
وبين من بفعال الآخرين شدا

فدع لفارس «فردوسيها» فلنا
بأحمد المتنبي مفخر خلدا

هذا يغامر وصافا لما شهدا
وذاك يبغي بوصف السالفين ندى

○○○○○

نبيّ

إن المدائح التي يعتز ويفتخر الشعراء بتحبيرها في خير الأنام وسيد المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ، لا يمكن أن يقف باحث على آخر لها.

فحب الرسول ﷺ يجري في دماء المسلمين. ولهذا فإنه قلَّ أن تجد شاعراً منذ فجر الإسلام حتى يومنا هذا، إلا وقد امتدح النبي ﷺ فيما يمر من مناسبات سنوية متكررة. كذكرى مولده ﷺ أو يوم هجرته، أو يوم وفاته، أو يوم أسري به وعرج به إلى السماء، أو ما إلى ذلك من الأيام المشهورة التي وقعت في حياته ﷺ، وإن كانت أيام حياته كلها مشهورة وكلها انتصارات على الجهل والكفر والزيغ والفساد، وبركة على المسلمين، فهي كلها تشريع وهداية وتوجيه وجهاد في سبيل الله.

والشاعر علاء الدين بن مليك الحموي المتوفى سنة ٩١٧هـ، كان واحداً من الشعراء الذين أفاضوا في مدح الرسول ﷺ، إذ نظم أكثر من قصيدة في مدحه ﷺ، وهي مدونة في ديوانه: «النفحات الأدبية من الرياض الحموية»، ومن بين القصائد التي امتدح بها الرسول الكريم؛ قصيدة قافيَّة بلغ عدد أبياتها ثمانية وأربعين بيتاً، وقد اتكأ على كلمة «نبي في اثنا عشر بيتاً منها متوالية»، من تلك الأبيات قوله:

نبي غدا في حلبة الفضل سابقاً

فمن ذا يجاريه وقد أحرز السبقا

نبي له كانت تظل غمامة

إذا سار غرباً في الظهيرة أو شرقا



نبي له قد ردت الشمس آية
وبدر الدجى في النصف طوعاً له انشقا

نبي أتت تسعى الغزالة نحوه
وعادت ومنه نورها يملأ الأفقا

نبي أعاد العين بعد ذهابها
وفاضت معيناً من أصابعه دفقا

نبي به أسرى إلى العرش فارتقى
مكاناً علياً غيره الدهر لا يرقى

نبي على السبع الطباق لقد علا
مكاناً وقد صلى وأم بهم حقا

نبي دنا من قاب قوسين وانتهى
إلى الغاية القصوى وحقاً رأى الحقا

○ ○ ○ ○ ○

وهل هناك شيب مخادع؟!!

ثار الشاعر أحمد الصافي النجفي على الشيب ثورة عنيفة حينما رأى دلائله بادية عليه. وذلك بابيضاض شعره، بل ثار ثورة جعلته يتساءل بقوله: أمثلي يشيب؟ وكأنما الشيب عنده أمر موقوف على غيره وليس له منه نصيب. يقول:

لحى اللّه شيبي أمثلي يشيب
وروحي في عنفوان الشباب

ثم راح يعلل بأن البياض الذي اشتعل في رأسه إنما هو صبغ وخضاب وليس شيباً:

فلا يخدعنك بياض بشعري
فهذا صباغ وهذا خضاب

وينفي الأثر الذي خلفه الكبر، أو بالأصح الذي أحدثه الكبر في جسمه، وبدأ واضحاً في هيئته بأنه أمارات شيب وعلامات شيخوخة ناسباً ذلك إلى أنه نتيجة أسقام وألم وأسى واكتئابات تعاورته، وليس بفعل طول تتابع السنين:

وهذا العياء سقام ألم
وهذي الغضون أسى واكتئاب

ويكون للشيب ميزة في وسط المجتمع الذي يعيشه، وذلك بتخلف الشائب عن مجاراة الشاب فيحصل له شبه انفراد. لكن النجفي يعزو انفراده إلى اليأس من جيرانه وأصحابه، وليس بفعل الشيب؛ لأنه كما



يقول: لو كان ذلك التفرد قد حصل قبل الشيب لما أحسست بأني غريب بين الشيوخ الذين أجالسهم:

وهـــذا الـــتـــفـــرد والانـــزواء
هـو الـيأس من جيرتي والـصـحـاب

فـإن كـنـت شـيـخاً فـمـا لـي أحسّ
لـنـفـسـي بـيـن الـشـيـوخ اغـتـراب

ويعارض من يدعوه شيخاً بل يتحداه ويقول: إن كنت تريد أن تعرف صحة إنكاري للشيب فقرب إلى الجمال ترى لي نشوة وتشوقاً لا تتوفر في الشيخ، وترى لي حركة ومشية غير حركة ومشية الشائب:

فـإن شـئـت قـرب إلـى الـجـمـال
لـتـبـصـر بـي نـشـوة والـتـهـاب

وتـلـقـى الـغـضـون بـوجـهـي اختـفـت
وسـيـرى اخـتـيـالاً كـحـاسـي شـراب

ويزيد في تأكيده على أنه ليس شيخاً، بأنه عدو الشيوخ، ورفيق الشباب:

فـــإن عـــداتـــي كـــل الـــشـــيـــوخ
وإن رفـــاقـــي كـــل الـــشـــبـــاب

ولو أن الذي يحاج النجفي عاقلاً، لقال له: وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟ ولكنه تقاول مع نفسه وأقام الحجة عليها.

○ ○ ○ ○ ○

الدكتورة إخلاص

تزيد بسجن على سجون أبي العلاء الثلاثة

قد لا يستشعر المرء المبصر حقيقة ما أشار إليه أبو العلاء المعرّي في قوله أنه يعيش في ثلاثة سجون، هي: العمى، ولزوم البيت، وأن نفسه في جسد خبيث. بل ربما سخر منه المعافى من تلك الثلاثة، أو حتى المصاب بأشدها وهو العمى؛ فالعميان لم يعيشوا في سجون من عماهم. بل إن الكثير منهم يكون أهدى من المبصر في كثير من مجالات الحياة، ويحقق هذا القول أننا قلّما نقرأ تشاؤماً صادراً عن أعمى يمقت فيه العمى غير أبي العلاء المعرّي أو من قد تأثر بفلسفة سجونه الثلاثة. وإنما نقرأ انطباعاتهم عما يستشعرونه من سعادة وارتياح لممارسة شؤون الحياة؛ كيف لا وذكاؤهم وفطنتهم وعلمهم وحنكتهم وتحركاتهم في الحياة تفوق ما يُتَصَوَّرُ عن المبصرين.

أما أبو العلاء المعرّي فهو الذي سجن نفسه بنفسه ـ ربما لأمر ما ـ فاعتاد السجن الذي أشار إليه ورضي به فأصبح غير قادر على الخروج منه بعدما ألفته نفسه، وصار عنواناً يستدل به عليه وضماناً لوجوده الذي حول بيته إلى صالون أدب ومقصد أدباء. وقد بالغ أحد المعجبين به وبأدبه وعلمه وبقائه في بيته فوصفه بأنه كعبة الأدب.

ونبتعد قليلاً عن ذاتية أبي العلاء المعرّي لنرى مدى تأثير عبارة «رهين المحبسين» لدى من جاء بعده، فنجد هذه العبارة قد كانت حجر زاوية لبعض العُمْي الذين يمنون بخيبة الأمل والفشل في الحياة، أو لكل مبصر يؤل بصره إلى العمى؛ كالشاعرة الدكتورة إخلاص فخري

عمارة التي أصيبت بقصر البصر فاستقت من معين أبي العلاء للتعبير عنه حيث أنشأت قصيدة قوامها عشرين بيتاً، وذلك أثناء معالجتها لعينيها في إتلانتا بالولايات المتحدة الأمريكية. خاطبت فيها أبا العلاء وزادت بسجن واحد على سجونه فصارت على حد قولها تعيش في أربعة سجون. تقول:

شكوت ابن المعرة من ثلاث
فكيف برابع يحني الرقابا

وهي في العين إشراق الضياء
وكم عانيتُ من بدني عذابا

ومثلك قد لزمت حدود بيتي
وخلفت الأحبة والصحابا

وزاد شقاوتي واستل صبري
فراق الأهل قسراً واغترابا

فليس بمسمعي صوت أليف
ودود النبر يسقيني رضابا

إذا حدثت عاد إليَّ صوتي
كما لو حدثت نفسي سرابا

غبطتك إذ تعيش على تراب
وريح نسيمه للنفس طابا

وحولك فتية عرب كرام
لسان الضاد كان لكم رحابا

○○○○○

حلم ويقظة!!

من الناس من يضعه خياله في بعض الأحيان فوق متن السحاب فتحدثه نفسه أحاديثاً مناسبة عبر أحلام الخيالات. ويشتاق لتنفيذها على أنه الآمر الناهي والمطاع في كل أمر. وأن الناس من حوله يترقبون منه إشارة أصبع أو إغضاءة عين. لكنه إذا ما اليقظة هبطت به وأنزلته من على متن السحاب راح يطلب تفسيراً لأحلام الخيالات التي طافت برأسه فلم يجد لها معبراً حاذقاً؛ لأن واقع الصحوة يضعه في موضعه الحقيقي الذي لا يمت لخيالاته بأية صلة. ثم يرجع إلى الخيال ليقله مرة ثانية فوق السحاب لتداعبه الأحلام من جديد، وهكذا تمضي حياته، حيناً على ظهر الأماني التي تقطع سباسب الأحلام في ساعة الغفوة، وحيناً يقلب كفي على عدم استطاعته على تحقيق طموحاته التي نشرتها أمامه أحلام المنام وطوتها يد الصحوة.

ومن تكون هذه حالته يعيش وسط ثورات نفسية مهمتها تحطيم قواه العضلية والفكرية حيث تحلق به أثناء غفوته الانطلاقات الوهمية التي تمنحه آفاق الدنيا كلها ثم بعد سويعات تجره خيوط الصحوة إلى واقعه الذي سرعان ما تغيب فيه تلك الآفاق التي رسمتها له أحلام الهزيع الأول من الليل.

وقد صور الشعراء هذه الانطلاقات وتلك التراجعات، وأدرجوها في أساليب تشد انتباه القارئ.

والدكتورة إخلاص فخري عمارة رسمت شيئاً من صور الطموح



والتراجع في قصيدتها «طموح» المدرجة ضمن قصائد ديوانها «الطائر المهاجر» حيث تقول فيها:

أو كلما خبت الأماني وانزوت
وظننت أحلامي جميعاً قد هوت

عاد الطموح يثيرها ويثيرني
وإذا التي هجعت بأعماقي صحت

وفيها تقول:

زاد الخيال لهيبها فتوقدت
ومتى تلوح رؤى النجاح تأججت

ويعود يلهمني الحماس قصيدة
وأعود أرسم خطة كم أخفقت

وفيها تقول:

لكن مقدرتي تنوء بخطتي
ومناي أكبر من قواي فأفلتت

ويهدني يأسي وتخبو جذوتي
تحت الرماد كأنها ما أشعلت

وأكاد أخلد للسكون رضية
وأكاد أنسى أمنيات زخرفت

بعض الليالي ثم يوقظ صبوتي
أمل ملامحه ـ على بعد ـ زهت

ooooo

نحن أيها الأتراب الأحباب بين قرنين

ألا تتصورون أيها الأتراب الأحباب. ويا من أحالكم القرن الرابع عشر للهجرة إلى القرن الخامس عشر، أقول: ألا تتصورون وأنتم تنهون العقد الخامس من عقود أعماركم كما أتصور أن أبا العتاهية يشير إلينا بإصبعه في قوله:

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم
وخلفت في قرن فأنت غريب

وإن امرءاً قد سار خمسين حجة
إلى منهل من ورده لقريب

فهل نحن في غربة بين أهل هذا القرن؟!! وأعني بالغربة. أننا نعيش مع أناس يقوم بيننا وبينهم فارق كبير في السن. بل ويزيد ذلك الفارق تضخيماً أننا عايشنا قرناً ما كانوا من أهله، ولعل قدومنا إليهم من ذلك القرن على العربة الخامسة من قطار العمر يعني الإجابة بأننا شبه غرباء لديهم.

والإشارة إلى ما نجده أو يجده أكثرنا من تعامل معهم يتطلب منا تقسيمهم إلى قسمين: أحدهما لا يرانا أصحاب مقدرة على فهم تطورات الحياة الحضارية التي واكبت قرنهم هذا. بل إنه يظننا قدامى لا نستطيع التعامل مع ظروفه، ولا نفهم لفك رموز لغة «تكنلوجيا» حضارته الصناعية والعلمية والثقافية والأدبية والاقتصادية.

أما الثاني فإنه يرى فينا أصالة فكرية تجمع بين القديم والحديث. فتراه دائماً يلاحقنا بالأسئلة عن الأشياء التي عايشناها ولم تعد قائمة

تنبئ عن حالها، وكأنما نحن وافدون من سفر بعيد ومن بلاد مجهولة العادات والتقاليد، والأعراف السائدة، وما إلى ذلك من الوسائل التي تكتسب بها لقمة العيش.

ويبقى أن نستعرض بعد ذلك قصيدة أبي العتاهية التي ضمنها البيتين السابقين. إذ أن فيها من الحكمة والزهد ومحاسبة النفس الشيء الكثير، يقول أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن اللّه يغفل ما مضى
ولا أن ما يخفى عليه يغيب

لهونا لعمر اللّه حتى تتابعت
ذنوب على آثارهن ذنوب

فيا ليت أن اللّه يغفر ما مضى
ويأذن في توباتنا فنتوب

إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهم
وخلفت في قرن فأنت غريب

وإن امرءاً قد سار خمسين حجة
إلى منهل من ورده لقريب

نسيبك من ناجاك بالود قلبه
وليس لمن تحت التراب نسيب

فأحسن جزاء ما اجتهد فإنما
بقرضك تجزى والقروض ضروب

○○○○○

ملهم الشعر

تتجلى خواطر بعض الشعراء فتسمو نحو أهداف يحول، بُعدها المعنوي وحقيقتها الفكرية بينها وبين كثير من الناس. خاصة منهم الذين لا يطرق التأمل لهم باباً، ولا الخيال لهم حساً. والشعراء كثيراً ما يضمنون خواطرهم عبارات تنم عن التلويح بأيديهم إلى المستقرين في الوهاد أن هلموا إلينا ـ اقدموا ـ ترون أفقاً واسعاً وسماء صافية، وهواء ينعش النفس ويخالج الفكر بإيحاءات تمكن من مسّ الأشياء، وتبعث على وصفها.

ولو أردت استعراض أسماء الشعراء الذين صنعوا من أقوالهم حكمة وألقوا بموزون كلامهم ما فيه عظة، ونادوا بقوافيهم العذبة بني قومهم، لما استطعت ذلك لما لها من كثرة وتنوع.

ولو أردت أن أضع صورة من الصور التي رسمها الشعراء وعلقوها على جدار الزمن وواجهة الحياة لاحترت فيما لدي من القصائد التي تستحق التعليق.

وبما أن الموضوع الذي أنا بصدده هو رصد التزام الشاعر بعبارة معينة يصدر بها جملة أبيات متواليات، فها أنذا أستعرض قصيدة للشاعر زكريا الأنصاري من الكويت قوامها ٥٥ بيتاً، وقد صدر أكثر من اثنا عشر بيتاً، منها بـ«ملهم الشعر»، وقد وضع أصبعه فيها على كثير من المشكلات المزامنة لعصرنا هذا. يقول الأنصاري في أبياتها التي جعل أوائلها، ملهم الشعر:

ملهم الشعر أنت في الروح روح
قد تسامى وأنت ظل ظليل



ملهم الشعر أنت في العقل عقل
أنـت هـاد ومـرشـد ودلـيـل

ملهم الشعر أنت في الفكر فكر
نـافـذ صـائـب بـلـيـغ أصـيـل

ملهم الشعر أنت في القلب نور
يـتـلألأ كـأنـه قـنـديـل

ملهم الشعر أنت حب وفوق الحب
بـل أنـت فـوقـه إكـلـيـل

مـلـهـم الـشـعـر أنـت شـيء تـعـالـى
أنـت سـر بـل عـالـم مـجـهـول

مـلـهـم الـشـعـر قـد مـحـضـتـك وداً
مـا لـه فـي الـحـيـاة ودّ مـثـيـل

ملهم الشعر هل لنا في ذرى الشعر
سـبـيـل وهـل لـنـا لـديـك سـبـيـل

والقصيدة موجودة بكاملها في كتاب «أدباء من الكويت».

○○○○○

المتعة... في مخاطبة الحفيد

يجد بعض المسنِّين ـ إن لم يكن كلهم ـ متعة في مخاطبة أحفادهم؛ بل يرى كل منهم أن في ذلك منطلقاً إلى رؤى ذات بُعد زمني يرجع به تاريخه إلى عالم الطفولة فيمضي مع الخيالات التي ما زالت تحتفظ بها ذاكرته منذ عهد الصبا مستنشقاً عبير عطر كانت قد فتقته أنفاس الطفولة وبثته في ملاعب الصبا.

والحفيد الصغير يوقظ في نفس جده غفوة دهدهتها يد السنين التي صيّرته جداً، ويحرك فيه شعوراً يفيض بمكونات مادة أدبية تطفح بذكرى الطفولة البهيجة، وتشكل في مفهومها وصفاً صادقاً وتعبيراً حياً عن واقع الطفولة بما فيها من براءة تلتقط بصفائها وشفافيتها كل كلمة دافئة وتغازل بنظراتها كل ابتسامة عذبة لتردها مشرقة تتلألأ بنور الطهارة، وتعزف نشيد الحب والعطف والحنان لتصور بإيقاعاتها مدى عشق الطفل للعب والمرح، وترسم في نفس الوقت خطوطاً عريضة لسلوكياته التي لم تدنسها أساليب الغيرة المنبعثة من الحسد ولم تختلط بعناصر الحقد الذي تتميز من غيظه نفوس الكبار.

والشاعر زكي قنصل يرسم حبه لحفيدته في إطار قصيدة طويلة ضمنها شيئاً من التوجيه لهما، وقد وصفهما بالقمرين اللذين أضاءا ليله وليل ابنه وحيد. مطلع القصيدة:

كُرمى عيون حفيدتي وحفيدي
شاغلت قلبي عن عيون الغيد



وفيها يقول:

ماذا أقول لألثغين توزعا
عيني واتفقا على تجديدي

بعثا رفاتي من ثراي وعالجا
روحي فعادت طفلة في عيد

يتضاحكان فمهجتي في جنة
ويقطبان فيا جهنم ميدي

وفيها يقول:

عبس الغروب فيا حفيدي اطلعا
قمرين في ليلي وليل وحيد

لا تجعلا للحقد في قلبيكما
وكراً فدرب الحقد غير حميد

الحب شق إلى الحياة مسالكي
والحقد زعزع فيّ كل وطيد

لا بد أن أطوي جناحي في غد
فخذا من الدنيا بكل جديد

○ ○ ○ ○ ○

براءة الطفل سرّ مفتاح محبته

ينداح حب الطفل في نفسي أبويه كل ما تفتق صباح يوم جديد على حياته. ورأياه يدرج من سريره بخطواته البدائية التي ترتعد خوفاً من السقوط لعدم السيطرة على التوازن الذي يقيه من التعثر، ويزيد هذا الابتهاج في نفسيهما ما يصدر عنه من كلمات تتفق نغماتها التي لم تفصح عن مدلول يحقق له طلباً أو يفهم منه قصداً معيناً مع وقع حركات الأقدام وإيقاعات تلك الخطوات التي يتمايل معها ذلك الجسم الذي يشبه في نعومته وغضارته ورقّته البرعم الغض الذي يشرئب إلى التماسك مع ما حوله من البراعم ليكون وحدة متماثلة في الرقة والنعومة والنمو.

ويشبه في زهوه ونضارته تلك الزهرة التي تستقبل طل فجر يوم ربيعي تنساب مع خيوطه وأشعة شمسه نسمات ريح عليلة تجعل الزهور تتمايل في حركات راقصة، يكاد ينطق الجماد لرؤيتها، ويعبر عن سروره بمنظرها.

وأكثر الناس تعبيراً عن هذه المشاهد المطربة التي تملأ النفس سروراً وتغمر القلب حناناً هم الشعراء الذين يرسمون لوحات فنية من الشعر، الذي يعبر بعذوبة وصدق عما بداخل النفس من محبة وبهجة.

وما أكثر الذين وصفوا جمال الطفولة وبراءتها، وجعلوا منها مرتعاً لخيالاتهم الدافئة. وتجلياتهم الرقيقة.

والشاعر السعودي عبد الله باشراحيل واحد من أولئك الشعراء الذين أنطقتهم البهجة بالطفل، وحرّكت فيهم مشاعر الحب. يقول من قصيدة طويلة:



يا زهرة بين الخمائل
يا كوكباً فوق القوافل

تبدو إذا لاح الصباح
وفي مسارات الأصائل

فيها براءات المنى
فيها ترانيم البلابل

فيها ابتسام النور يسـ
ري حينما تشدو العنادل

فيها الرياحين المضيئة
في الحقول وفي السواحل

يا طفلة الأمل الصبوح
وبهجتي بين الأمائل

يا فتنة السحر الضحوك
إذا تعانق بالسنابل

أوقدت للفرح الشموع
وأشرقت منك المنازل

○○○○○

من معارضات ابن الأبَّار

لملقى السبيل

أورد الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه «رسائل ونصوص»، معارضات ابن الأبار لكتاب «ملقى السبيل»، وكتاب «ملقى السبيل» هذا هو من مؤلفات أبي العلاء المعرّي، وقد حصر موضوعاته في الوعظ، وجعلها عبارة عن قطع قصار من النثر تتألف من فقرات مسجوعة يتبعها أبيات من الشعر.

أما ابن الأبار، فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الأندلسي قتل عام ٦٥٨ هجرية في تونس، وقد رتب معارضاته لملقى السبيل على حروف المعجم، وقد قال على حرف الضاد: إلام نلعب ونخوض والمرء على الله معروض مسنونه ومفروضه منسي ومرفوض؛ كأن ليس عليه قدوم ولا إليه نهوض، المؤمن بصره مغضوض، والموقن بنانه معضوض، لا تثق بالدنيا فأقصى ظهرها غموض، ولا تصحب الأردى فرب مرفوع على الجوار مخفوض.

يا من يفر بمضمحلات المنى
حتام تلعب ذاهلاً وتخوض

لا تكذبن فكل ما تبدي وما
تخفي إذا عرض الورى معروض

للّه در التائبين فإنهم
نهضوا وما للمذنبين نهوض

ولرب مقبول المساعي في الدنا
مسعاه يوم حسابه مرفوض

كم بين خاش بالطماح فؤاده
أملاً وخاش طرفه مغموض

وإلى التفكر في المال فروعه
ذو روعة وبنانه معضوض

قل للذين تظاهروا بظهورهم
سيطول في بطن التراب غموض

وهناك يستوي الدثور ويستوي
في الرتبة المرفوع والمخفوض

○○○○○

حرف الياء

من معارضات ملقى السبيل

ومن معارضات ابن الأبار لكتاب «ملقى السبيل» لأبي العلاء المعرّي الذي سبقت الإشارة إليه في الموضوع السابق، جاء على حرف الياء قوله:

حاد بك عن الرشد غي

واعتورك تسويف بالإنابة ولي

كأن ليس وراء النشر طي

إنما الأعمار لغارت الموت في

لا يبقى غير الحي القيوم حي

غيل غيلان وأمت مي

فاحذر ندامة من ترك الرأي بالري

واثبت فإن المنهزم لا يرده شيء

شعر:

نصحتك لا تبع رشداً بغي

وبع طلب الرضى بالرشد غيا

ولي الشيب بالإقلاع ظلم

فكم ذا تتبع التسويف ليا

ألم تر ما يسوم الناس نشراً

من الآمال كيف يغال طيا

إذا فـاء الـفـتـى لـنـهـاه يـومـاً
رأى الأعـمـار لـلآجـال فـيـا

يـبـيـد الـخـلـق مـن شـيـخ وشـرخ
وهـل تـرك الـردى فـي الـحـي حـيـا

مـحـت قـيـسـاً ولـيـلاه الـلـيـالـي
وغـال الـمـوت غـيـلانـاً ومـيـا

مـرام الـفـوز فـي دنـيـاك دان
بـمـا تـرجـوه مـن ريِّ وريـا

وخـيـر الـزاد تـقـوى الـلّـه حـقـاً
فـلا تـعـدل بـتـقـوى الـلّـه شـيـا

○○○○○

كــأن

انطلق الشاعر السوري محمد حمود البزم في إحدى قصائده التي وصف فيها الربيع وما يحصل للأشجار من تعانق وتصافح، وتشابك براعم وأغصان يطرب منظره.

فالطير يصدح فوق أفنانه بترانيم تطرب البشر وتجلب الاستمتاع للأذن والنظر.

أقول: انطلق البزم في إحدى قصائده التي ضمنها الجزء الأول من ديوانه. فصدر جزءاً كبيراً من أبياتها في صورة متتالية بـ«كأن»، حيث شبّه فعل الربيع بالأشجار والأزهار بما يملكه من بلاغة في جمال الوصف ودقة في المعنى.

يقول عن غوطة دمشق:

يزان بها وفد الربيع ولم تكن

لتحتاج يوماً رفده إذ يميرها

كأن الربيع الفخم ليس يروقه

وقد لبس الإكليل إلا سريرها

ويصف زهيرات الشجيرات التي لحفت التلال والتلاع بألوانها التي تشبه حلي التيجان المرصعة:

كأن حلي التيجان فيها فرائد

منضدة فوق التلاع شذورها





ويصف تمايل الأغصان من فعل النسيم العليل بما تفعل الخمر لشاربها من الترنح:

كأن نسيم الروض نشوان وانياً
أدار حمياها عليه مديرها

واختلاف ألوان الأوراق والأزهار والأغصان التي تغطي أديم الأرض وتعطي الناظر تخيلاً بأن الأرض قد فرشت باللآلئ. أعطت الشاعر البزم انطلاقة صادقة في دقة التشبيه المطابق للمشبه به. فكأنما القارئ يرى من خلال قراءته لذلك الوصف جمال الصورة المشابهة للأصل الحقيقي:

كأن كنوز الأرض قد نثرت بها
وجادت عليها باللآلئ نحورها

كأن رباها مومسات تغايرت
فليست تواري حسنهن خدورها

كأن برود المالكين على الربى
منشرة أفوافها وحبيرها

كأن بقايا الليل تطلب عندها
كواكبه منثورة فتثيرها

○○○○○

الشعراوي
كان شاعراً قبل أن يكون مفسراً

لا أدري كيف أتحدث في هذه السطور التي انتهجت في تسطيرها عدم الاسترسال وإطالة الوقوف فيما أختاره من الموضوعات. فهل أتحدث عن شخصية الشيخ الفاضل محمد متولي الشعراوي كشاعر. أم أتحدث عنه كعالم ومفسر للقرآن الكريم ومتحدث مجادل عن لغتنا العربية؟ وهذا الأخير أرى عدم الوقوف عنده والتعرض له لأمر بسيط لا يجهله أي متعلم. وهو أن الحديث عن الشعراوي كعالم قد أغنت عن بعضه وسائل الأعلام المرئية والمسموعة والمقروءة والتي كلها تتابع باهتمام نشر ما يلقيه من دروس على تلامذته الذين يتحلقون حوله في المسجد بصفة مستمرة ولتلك الأسباب أدع الحديث عن شخصيته العلمية. والتي لا تتسع لها مساحة هذا الموضوع، ولهذا فإني آخذ بجزء يسير من شخصيته كشاعر.

وذلك نقلاً عما كتبه عنه الأستاذ عبد الله السيد شرف، من القاهرة. الذي يحقق فيه أن للشيخ الشعراوي ديوان شعر صدر عام ١٩٣٦م تقريباً، وكان عمر الشعراوي أنذاك ٢٥ سنة، وأنه من مواليد عام ١٩١١م، وبلده دقادوس في بيت غمر التابع لمحافظة الدقهلية.

وفيما كتبه السيد شرف إشارة إلى أن الشيخ الشعراوي قد خلع ثياب الشعر بعد أن سدد به سهماً في صدر الاستعمار الذي ران إبان صدور الديوان على جسد أمته وخاطب به الشباب الذي هو دعامة الأمة وعماد نهضتها. بعد ذلك ارتدى ثياب التفسير.



وكان الشعراوي يحاول في شعره إذكاء الروح الوطنية واستنهاض الهمم، ومن قصيدة له في هذا الشأن:

نداء يا بني وطني مجاب
دم الشهداء يذكره الشباب

ومنها قوله:

ومن هاب المعارك عاش عبداً
تسير به العدا حيث الخراب

وذو الإيمان إن زأرت أسود
يحقرها كما طن الذباب

ومنها قوله:

تفرقت المبادئ فهي شتى
لكل جماعة للحق باب

وصوت الله مقرون بصوت
تردده جماعات تهاب

ومنها قوله:

سئمنا كل تسويف ومطل
فقد فتقت عن الحيل الإهاب

أترعى العدل محكمة تصدت
لسحق العدل ما هذا العجاب

فلا تهنوا وإلا فاتركوها
لمن لجبينها جعل النقاب

○ ○ ○ ○ ○

أحدث قصيدة للشعراوي

الكثير منا لا يعرف أن فضيلة الشيخ الشعراوي، شاعر!!! لكن واقع الحال يثبت أن فضيلته شاعر، وأنَّ له ديوان اسمه: «من بنات الفكر»، وقد أشرت في موضوع سابق عناونه: «الشعراوي كان شاعراً قبل أن يكون مفسراً»، إلى تاريخ إصدار ذلك الديوان، وذكرت غير ذلك من المعلومات المقتضية التي استسقيتها من موضوع نشره الأستاذ عبد الله السيد شرف. وبنيت عليه الإشارة إلى أن الشعراوي شاعر، وأن معظم قصائد ديوانه كانت تحثّ الشباب على الوقوف في وجه الاستعمار. وأن الشعراوي حقق بذلك الشعر شيئاً من الأهداف التي رسمها وكانت ثمارها إلهاب حماس الشباب، وحمله على الذود عن الوطن الذي كان يرزح تحت وطأة الاستعمار؛ ثم بعد ذلك اعتزل الشعر واتجه للتفسير، وقد نقلت بعضاً من التعريفات بشخصيته؛ كعام ولادته، واسم المحافظة التي تتبع لها بلدته، وما إلى ذلك مما له علاقة بشخصيته.

وقد أشار الأستاذ شرف في موضوع خصصه للحديث عن الشعراوي كشاعر إلى أنّ أحدث قصيدة قالها الشعراوي، هي تلك القصيدة التي كتبها وهو في رحاب البيت العتيق وشارك بها في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة زيارة أحد المسؤولين المصريين للمملكة العربية السعودية، وأنه بعدها اختفى ليبزغ نجمه مفسراً كبيراً. وتعتبر تلك القصيدة التي كان عنوانها: «يا رب ندعوك»، آخر ما كتبه الشعراوي من شعر حتى الآن، منها قوله:

نصرت باللّه واستعصمت بالسبب
إلى العلا أمم الإسلام والعرب

حييتها وحدة تزهو بها نسباً
فأمنا الضاد والإسلام خير أب

إنا شعوب سبيل الله يجمعها
فلن تفرقنا الأعداء في شعب

يا أمة العرب والأمجاد إن لنا
في المجد سابقة مروية العجب

عشت إلى ضوئها الدنيا وكان لنا
في الفرس والروم بأس الركض والخبب

هذا هو النسب العالي أعيذكمو
باللّه أن نتولى ضيعة النسب

ومنها قوله:

وبارك اللّه وداً لا انفصام له
في اللّه والمجد والغايات والأهب

يا رب ندعوك في البيت العتيق وفي
مهد النبوة فانصرها مدى الحقب

○○○○○

ليل مدينة... صول

ما نقرأ من شعر إلا ونجد لليل فيه ذكر، وهذا ربما يكون موقوفاً على خواطر القصيدة التي تضمنته أو استدعته ظروف القافية أو مناطق الحشو من البيت، وإذا ما بحثنا في غير ذلك التعليل برز سؤال يقول: هل الليل نفسه هو الذي أوجد تلك الإيحاءات التي فيها من البوح بما يأتي به الليل من أفراح وأتراح لا يمكن حصر كلٍّ منها؟. أم أن هناك أسباباً أخرى لا يظهر نشاطها أو تتجلى صورها في نفس الشاعر إلا مع سكون ظلام الليل ووحشة غسقه؟ فيكون بذلك هو الملهم له. ولم يكن هو السبب الحقيقي الذي يولد تلك الخواطر التي يطرق بعباراتها ظلام الليل وغواش حندسه.

والذي يلقي نظرة عابرة على أقوال الشعراء المتعلقة بالليل يجد أن العوامل التي أوجدت ذكر الليل في أشعارهم متنوعة كتنوع أفكارهم؛ إذ أن منها ما هو من صنع الليل نفسه، ومنها ما هو من صنع المكان الذي تتغير أحواله بين الليل والنهار تغيراً يكون ليله أثقل من نهاره لوجود عوامل لا تظهر إلا في ليله.

ونحن نقرأ لكثير من الشعراء تذمرهم من ليل المكان الذي يعيشون فوق أرضه وتحت سمائه حيناً، وحيناً نقرأ لهم تذمراً من الليل نفسه لأسباب ليس للمكان بها علاقة.

وهذا الشاعر حندج بن حندج المري، يظهر قلقه من ليل ـ صول ـ وصول هذه مدينة ببلاد الخزر. يقول حندج:

في ليل ـ صول ـ تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالليل موصول



لا فالق الصبح كفي إن ظفرت به
وإن بدت غرة منه وتحجيل

لساهر طال في - صول - تململه
كأنه حية بالسوط مقتول

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله
والليل قد مزقت عنه السرابيل

ليل تحير ما ينحط في جهة
كأنه فوق متن الأرض مشكول

نجومه ركد ليست بزائلة
كأنما هنّ في الجو القناديل

ما قدر اللّه أن يدني على شحط
من داره الحزن ممن داره - صول -

اللّه يطوي بساط الأرض بينهما
حتى يرى الربع منه وهو مأهول

○○○○○

مدينة عنيزة

ولست أرى الشاعر المطبوع الذي يستجيب للخاطرة التي ترد إليه عن طريق الرؤية أو السماع إلا كالبلبل المغرد الذي إذا ما أعجبته الخضرة والماء أطلق لسانه صادحاً من فوق أفنان الأشجار اليانعة، وعلى حافات الجداول الجارية بصوت يشنف الآذان بلحنه العذب الذي يذوب في أذن السامع ذوبان السكر في فم المتذوق؛ فتتهافت على صوته الطيور بجميع أشكالها مرجعة صدى نشيده.

أقول هذا بعدما قرأت أبياتاً للشاعر السعودي عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس مشيداً فيها بمدينة عنيزة. وعنيزة لا يجهل أي مواطن سعودي موقعها، فهي تقع على مسافة ٣٣٠ كم شمال مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية.

أما اسمها فله في التاريخ مكان؛ حيث كان أهلها أصحاب رحلات تجارية وعلمية.

أقول: إن الشاعر السعودي ابن إدريس قد غرَّد من فوق منبر من منابر الثقافة في عنيزة بأبيات عذبة جميلة تلمس واقع عنيزة وأهلها، وقد نشرت تلك الأبيات في جريدة «الرياض» عدد ٧٩٤٢، وتاريخ ٢٥ شعبان، سنة ١٤١٠هـ، بعد توطئة نصها: «دعا مركز بن صالح الثقافي في عنيزة الشاعر لزيارة عنيزة يومي الخميس والجمعة ١٨ و١٩ شعبان الحالي ضمن أساتذة اللغة العربية بجامعة الملك سعود بالرياض. وقد بهرته عنيزة بجمالها وتطورها ولباقة أهلها وكرم أخلاقهم. فاهتزت قريحته بهذه القصيدة القصيرة المكثفة»، ثم أورد القصيدة التي منها قوله:



هذي «عنيزة» كم شاقتك لقياها
وكم سباك ـ جمالا ـ نفح رياها

هذي «عنيزة» لا تنفك تعشقها
يا حسن معشرها يا طيب مجلاها

يا دوحة بثمار العلم وارفة
أعطت علوماً وزادت في عطاياها

أجيال علم غذتهم في جوامعها
كانوا نجوماً لنجد في قراياها

ومنها قوله:

لو قيل للشعر هل للشعر من بلد
يشدو لها يتغنى في محياها

لصفق الشعر في أرجائها غرداً
يطري سناها ويعلي من مزاياها

أنا ابنها الفذ وهي اليوم مرتضعي
قد كنت معلمها بل صرت معناها

ooooo

كأن... عند ابن المعتز

ذكر عبد العزيز سيد الأهل أن ابن المعتز قال قصيدة أكثر فيها من التشبيه بـ«كأن» في أبيات متوالية، ولم أعثر على هذه القصيدة التي ذكرها في «ديوان ابن المعتز» الذي صدر عن دار بيروت للطباعة، ولقد أبدى عبد العزيز سيد الأهل إعجابه بتشبيهات ابن المعتز التي تمخضت عن «كأن»، فقال: ولم يبلغ أحد من الشعراء بـ«كأن» ما بلغ ابن المعتز حتى ولو أبو القاسم محمد بن هاني الأندلسي حين قلده في كثرة التشبيه بها في أبيات متوالية.

«وستجد أيها القارئ أبيات بن هاني التي أشار إليها عبد العزيز سيد الأهل في موضع قريب من هذا الموضع»؛ ويستأنف عبد العزيز سيد الأهل في إظهار إعجابه بأبيات ابن المعتز فيقول: «ولم يبلغ شوقي بـ«كأن» حينما اتكأ عليها يصف بها تشبيهات متتالية في بائيته «صدى الحرب»، ما بلغه ابن المعتز رغم أن ابن المعتز لم يأت بها إلّا أحد عشر مرة. وشوقي جاء بها ثلاثاً وعشرين مرة. . . «وسوف آتي على ذكر أبيات شوقي التي بدأها بكأن في موضع قريب من هذا الموضوع إن شاء الله».

وإليك ما قاله ابن المعتز على شَرْطِي في تأليف هذا الكتاب. وإذا أردت الاطلاع على بقية الأبيات فستجدها في دراسة عبد العزيز سيد الأهل لأداب ابن المعتز وعلمه. يقول ابن المعتز:

كأن رقيب النجم أجدل مرقب
يقلب تحت الليل في ريشه طرفاً



كـأن بـنـى نـعـش ونـعـشـاً مـطـافـل
بـوجـرة أضـلـلـن في فـهـمـه خـشـفـا

كـأن سـهـيـلا فـي مـطـالـع أفـقـه
مـفـارق إلـف لـم يـجـد بـعـده ألـفـا

كـأن سـهـاهـا عـاشـق بـيـن عـود
فـآونـة يـبـدو وأونـة يـخـفـى

كـأن مـعـلـى قـطـبـهـا فـارس لـه
لـو أن مـركـوزان قـد كـره الـزحـفـا

كـأن قـدامـي الـنـسـر والـنـسـر واقـع
قصصن فلم تسم الخوافي به ضعفا

كـأن أخـاه حـيـن دوم طـائـراً
أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا

كـأن ظـلام الـلـيـل إذ مـال مـيـلـة
صريع مدام بات يستنير بها صرفا

لقد ذكرت آنفاً أنني لم أعثر على هذه الأبيات في «ديوان ابن المعتز»، لكنني هنا أقول: إنني وجدتها في عرض قصيدة امتدح بها ابن هانئ الأندلسي جعفر بن علي. ولا أدري كيف حصل هذا لعبد العزيز سيد الأهل، ولعله أراد أن ينقل أبيات ابن المعتز فنقل أبيات ابن هانئ؛ أو أنه عثر على أبيات ابن هانئ منسوبة خطأ لابن المعتز؛ فبنى على ذلك. إلا أن يكون محقق «ديوان ابن هانئ» هو الذي أخطأ فحشر أبيات ابن المعتز في قصيدة ابن هانئ. عموماً فأنا لم أجد فيما لديَّ من مصادر ما أقيم به الحجة، والذي يريد الاطلاع على القصيدة كاملة يجدها في «ديوان ابن هانئ الأندلسي».

أحدث صفارة تحذر من هجين الحرف

في كل من العصور تطفو على سطح آدابه وثقافته شوائب تكتنز بالطفيليات التي يخشى من تكاثرها وطغيانها على صفائه وواضح رؤيته، فتبرز علامات ملونة بألوان تعني الاحتجاج الصارخ على ما يلقى في ساحة الأدب من رديء النثر والشعر. وفي عصرنا هذا ارتفعت صيحات كلها تحذير من الهبوط بالأدب، وقد أطلقها أناس يحاولون بكل ما أتوا من بيان واستقامة لسان أن يضعوا حداً لأولئك الذين خدمتهم الظروف ـ كما يقولون ـ فجعلت من إنتاجهم أدباً فرضته فئة مسؤولة عن النشر. كما جعلت من أسمائهم أعلاماً، فتطلب الأمر التصدي لذلك وكشف زيفه.

والمراقب لساحة الأدب في عالمنا الحاضر يدرك هذا، ويرى تعادل الكفتين في مساحة الصفحات الأدبية، كفة المادة الغثة، وكفة الموضوعات التي تحذر من قراءة تلك المادة الغثة التي جلّ همّ أصحابها ونهاية مأربهم هو نشر أسمائهم وصورهم طمعاً في الشهرة، ليس إلّا.

وإذا توجهنا إلى أصحاب الأقلام الناقدة وطلبنا إليهم التعرض لتلك المقالات والقصائد التي يسود بها الورق تحت عناوين مثيرة فإنهم يبادروننا بقولهم: هذه أشياء لا تستحق النقد، ولو أننا توليناها بالنقد لثبتنا أصحابها في ميدان الأدب. ولكن تركهم فيه ما يشعرهم بعدم الالتفات إلى إنتاجهم، ومسيرة تاريخ الأدب أشبه ما يكون بالسيل. وهم أشبه ما يكونون بالزبد والغثاء الذي يذهب جفاء، ولعل أحدث

صفارة أطلقت صوتاً معذراً من هجين الحروف ورديء العبارة، وغث الأسلوب، وضعف الفكرة، هي تلك القصيدة الطويلة التي قالها الشاعر الدكتور وليد قصاب، ونشرتها مجلة «الفيصل» في العدد ١٤٩، ذو القعدة عام ١٤٠٩هـ، والتي منها قوله:

عرائس الفن ردي رونق الشعر
وسلسلي العذب من ينبوعك الثر

واسمعينا فقد ملّت مسامعنا
من أشوه النثر أو من أعرج الشعر

وكل يوم هجين الحرف يصفعنا
بمنكر السخف أو مستقبح الهذر

هاتي البيان أزاهير منمقة
وحدثي القوم عن فرسانك الغر

ومنها قوله:

وشاع فينا رديء القول وانتشرت
فينا التفاهة لا تبقى على ستر

هذر، ورمز وألغاز وتعمية
واهجن اللفظ في مستورد الفكر

ومنها يقول على لسان الأدب:

إني سأرحل لا ألوي على أحد
هذا زمان ـ أبي جهل ـ أبي عهر

فما مقامي بدار قد جفيت بها
وصرت فيكم بلا جاه ولا قدر

الحياة الفطرية في جزيرة العرب

كانت جزيرة العرب مرتعاً خصباً لكثير من أنواع الحيوانات والطيور، وذلك بحكم جغرافيتها، حيث السهول والجبال والرمال والأودية التي تسمق على ضفافها أنواع الأشجار، وهذه الجغرافية التي تتمتع بمناخ جوّي يختلف من ناحية إلى أخرى، من حيث الطقس واختلاف طبيعة فصول السنة اختلافاً كبيراً، كان سبباً من أسباب توافر أعداد هائلة من كل فصيلة من فصائل حيوانات الصيد كالظباء بأنواعها، بل ومن الحيوانات المفترسة كالنمور والأسود والذئاب والضباع وغيرها، مما كان قد قدم من إفريقيا قبل حفر قناة السويس واستوطن الجزيرة ونما وتكاثر فيها.

وأعداد هائلة من طيور الصيد الأصيلة والمهاجرة؛ كالحبارى، والبط، وغير ذلك، ومن الطيور الجارحة، كالصقور، والنسور، والحدأة، وغيرها.

وذلك يوم أن كان القنص بدائياً والقناص قلة، ولم يكن للعربات في جزيرة العرب وجود. لكن عندما وجدت وسائل الصيد المختلفة، كالأسلحة النارية والسيارات التي لا تقف دونها رمال ولا جبال، أخذ الناس في الإسراف في القنص بتلك الوسائل حتى أوشكت تلك الحيوانات على الانقراض بسببها.

وفي عصرنا هذا تنبهت حكومة المملكة العربية السعودية إلى ذلك الخطر الذي داهم تلك الحيوانات، فأنشأت هيئة للعناية بتلك الحيوانات والمحافظة على حياتها، سمّتها «الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية



وإنمائها» فخصَّصت تلك الهيئة مناطق برية حُرِّم الصيد داخلها؛ مما أوجد أمناً لدى الحيوانات والطيور، واستقراراً ظهرت نتائجه في تكاثر نسل الحيوانات والطيور التي ربت تلك المناطق واستقرت فيها.

وقد كان للشعراء دور فعّال في التعريف بمهمات تلك الهيئة ودروها في إنماء الحياة الفطرية، ومن أولئك الشعراء، الشاعر صالح بن سعود العمير، فمن قصيدة له قوله:

هي أقرب الهيئات من أسمائها
يتألق التوفيق في إنشائها

تعنى بإبقاء الطبيعة حية
ببلادنا في أرضنا وفضائها

هيا بني وطني نبارك صحوة
هيا نضم نداءنا لندائها

نسعى بجانب هيئة تسعى إلى
حفظ الطبيعة بل إلى إنمائها

كي تستعيد نشاطها وجمالها
بتكاثر الأحياء في أنحائها

كالوبر والأوعال وسط جبالها
والظبي والأطيار في صحرائها

فغنى الطبيعة بالحياة غنى لنا
وحياتها فيها ازدياد بهائها

ماذا أعبر عن جمال خميلة
لفت انتباهي صيد بعض ظبائها

جنون السلطة

وحب الرئاسة والسيطرة يخالج أصحاب النفوس الكبيرة، ويملي عليهم انتهاج سياسات معينة يطرقون بها السبل التي توصلهم إلى سدة السلطة وكرسي الزعامة. وطبيعي أن يكون هناك أكثر من شخص، بل أكثر من فئة تتماثل في السعي نحو أهداف زعامية ورئاسية.

ومن هذا المناخ ومن تلك الجغرافية السياسية يكون هناك تنافس بين فئات من الناس، وتسابق ينتهي في الغالب إلى محاولة كل فئة أن تعيق منافستها عن الوصول إلى غايتها السياسية. وقد تتطور الأساليب التي تتخذ للإعاقة فتصل إلى الاقتتال والدخول في مصادمات يشترك فيها أنصار كل فئة، فتتطور إلى معارك وحروب يطول مداها إلى أن تظفر إحدى الفئات بالسيطرة على مقاليد السلطة.

ولا غرابة في هذا الأمر؛ لأننا لو رجعنا إلى كتب الأخبار وسجلات التاريخ لوجدنا نسبة كبيرة من الحروب التي تدور رحاها ما قامت، إلا على تلك الأهداف. لكن الغريب في الأمر هو أن تقوم مصادمات وحروب من أجل ذلك بين أخوين شقيقين كما حصل للسلطانين: السلطان سليمان بن الحسن ابن أبي الحافظ الحجوري، وأخيه السلطان الخطّاب؛ وتدوم ثمان سنوات يحاول كل منهما التغلب على أخيه والاستيلاء على مملكة أبيه باليمن. فهذا ما لا يهضمه الفكر الإنساني، ولا تقره علاقة الأخ بأخيه.

وقد انتهى اقتتال السلطانين المذكورين بتغلب الخطاب على أخيه سليمان؛ حيث قتله. وأثناء تصادمهما جرت بينهما مراسلات خشنة

ومهاجات شعرية أنحى فيها كل منهما على أخيه باللائمة، واتهمه بأنه يحاول الغدر به، فمما قاله السلطان الخطّاب لأخيه في عرض قصيدة له:

وأصبح همي منه في إمارة
تبين للأعيان حين تراني

وما ذاك أني نيل مني بطائل
فيثلم حدي أو يفل سناني

ولكن أتتني عن سليمان نفثة
جفوت لها طيب الكرى وجفاني

أما السلطان سليمان فيقول في قصيدة وجهها للخطّاب:

إذا افتخر الخطاب يوماً بفخره
على الناس أن شر الجزاء جزاني

وإن خانني لما لهذا أمنته
وأدبته مستقصياً فجفاني

وإني رميت الناس دوني ودونه
ومكنته من أسهمي فرماني

ويشير سليمان في نفس القصيدة إلى أن أباه قد حذره من الخطّاب، وذلك بقوله:

وحذرني من غدره غير مرة
وقال أراه فيك رأي عيان

فلم أره إلا قبولا لقوله
وقلت أخي بل ساعدي وبناني

○○○○○

استبدال المدح بالهجاء

وبعض الناس يطلق لسانه صانعاً المديح ومرسله جزافاً إلى من يجد عنده معروفاً.

ويستمر المديح والإطراء ما استمرت يد الممدوح ندية تسدي لهم الجميل وتوالي لهم العطاء، وتتبع الصلة لهم بالأخرى. ولكن، إذا حصل توقف أو تغيرت حال الزمان بالنسبة له فإنهم لا يعذرون، ولا يقدرون الظروف التي أحاطت بمن كان يصلهم بالصلات والهبات والعطايا، ولا ما يحدث له الدهر من تغيرات وتقلبات تخلي يديه وتجعله بعد الغنى فقيراً محتاجاً.

ولعل الشعراء هم أكثر تعاملاً مع هذه الظاهرة التي كثيراً ما تحدث، وهم ـ وأعني بذلك الشعراء ـ أقدر الناس بل أجشعهم على نقض ما فتلوا، وهدم ما أقاموا من صروح المديح التي كانت دعائمها الهبات التي تنهال عليهم.

والذي يتتبع أقوال الشعراء الذين حصلت لهم مواقف مع من أطلقوا ألسنتهم في مديحهم ثم عادوا وبدلوا المديح بالهجاء، يجد اعترافات منهم بأن الذين أغرقوهم بالمديح ولم يكافئوهم عليه بالصلات، قد تحولوا عن مديحهم، وانصرفوا إلى هجائهم.

من الشعراء الذين اعترفوا بهذا الواقع، الشاعر صردر واسمه، أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل الذي يقول بالحرف الواحد:

هززناكم بالمدح نجني ثماركم
ونحلب من أخلاف وجدكم وفرا



فلم نحظ من ريح الثنا بطائل
فردوا كرأس المال أو بعضه شعرا

فإن أنتم لم تنصفونا فإننا
سنقتص من أعراضكم ذلك الوترا

إذا المنع والإعطاء كان خياره
إليكم تخيرنا المذمة والشكرا

فلا تحسبوا أنا إذا نلتم الغنى
ولم تشركونا فيه نوسعكم عذرا

ويقول أيضاً في مثل ذلك:

بتنا على الزوراء نهدم كل ما
بنت القلوب من الأماني الزور

لما لقينا من تجاهك عصبة
نضجت بشكواها ذفارى العير

إن امرءاً سلكت إليك ركابه
فجّاً لقد دلى بحبل غرور

○○○○○

إلى (م)؟!

إن المبدأ الذي سرت عليه في رصد كل ما أجده من أبيات ذات طابع خاص، يتمثل في لجوء الشاعر إلى التزام كلمة أو جملة أو حرف في عدة أبيات متواليات يبلغ عددها ثمانية أبيات أو أكثر من ذلك، أوجد لدي حصيلة لا بأس بها من تلك الأبيات.

وكنت أنوي جعلها تحت عنوان خاص في رسالة أو كتيب. ولكن موافقة كثير من الأبيات لمنهج تأليف هذا الكتاب «الأدب المثمن» من حيث عدد الأبيات جعلني أصرف النظر عن حصرها في إصدار خاص بها. ولهذا ضمنتها هذا الكتاب من حيث وحدة التتابع، لا من حيث جوهر الموضوع؛ لأن موضوع كل أبيات قد خضعت لالتزام الطريقة التي تقدم ذكرها يختلف عن موضوع الأبيات الأخرى؛ بحسب اختلاف منهج القصيدة التي اقتطفت منها الأبيات التي التزم فيها شاعرها بحرف أو جملة أو كلمة تتكرر في بداياتها بتتابع وتوالي. وعلى هذا فها أنذا أنقل أبياتاً من قصيدة طويلة تبلغ أبياتها مائة وواحد وأربعين بيتاً تقريباً، للشاعر حنابك الأسعد ابن أبي صعب الماروني العثماني اللبناني المولود عام ١٨٢٠م ومطلعها:

رويدك سار في دياجي الدجنة
تجوب مفازات بملء الأعنة

وفيها يقول:

إلى م تمادى بالسفاهة نابذاً
قناع حياء خالعاً كل خشية



إلى م تطيل الطيش والزيغ والغوا
بغفو وأحلام على غير يقظة

إلى م تضيع العمر باللهو باطلاً
وتقضي حياة بالمعاصي الذميمة

إلى م تغض الطرف عن نهي آمر
هو الخالق الجبار مبدي الخليقة

إلى م تبيع النفس بخساً وتشتري
بملء السماء والأرض قدراً لقيمة

إلى م ترى فخراً أباطيل عالم
لعمرك هل ساوت جناح بعوضة

إلى م تناهى في الملذات نهمة
وأوطارك القصوى دنايا الدنية

○ ○ ○ ○ ○

ملاحظـــة

ومهما يبلغ الشاعر من مكانة فإنه لا بد أن يكون عرضة للنقد؛ بل للانتقاد، إذا ما حصل منه شطحات لا يقبلها الفكر، إما لرداءتها من حيث الأسلوب أو لتجاوزها ما لا يعقل، وهذا الوزير أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان، المعروف بالزيات - صاحب القلم الإنشائي الذي لا يجارى في النثر - والذي قال الجاحظ عن شعره فيما نقله عنه ابن رشيق صاحب «كتاب العمدة»: طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وما تعلق بالأيام والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب، كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات.

وأيد ابن رشيق قول الجاحظ هذا، وذلك بقوله: فللّه أبو عثمان لقد غاص على سر الشعر واستخرج أرق من السحر.

والحقيقة أنني قرأت «ديوان الزيات» فما وجدته أهلاً لمديح الجاحظ وابن رشيق. إلا أن يكونا قد اطلعا على قصائد ذات قيمة لم يتضمنها الديوان الذي نشره، وقدم له الدكتور جميل سعيد، الأستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد. ولا أذهب بعيداً في سياق الدليل على ما يخالف رأي الجاحظ وابن رشيق في قوة شعر الزيات، فأقول:

لقد أنشأ الزيات أبياتاً، منها قوله:

يـــا دانـــي الـــدار فـــي الأمـــانـــي

ونـــازح الـــدار فـــي الـــعـــيـــان



ذكرك دان وأنت نائي
فأنت نائي وأنت داني

وتناقلت الرواة تلك الأبيات حتى وصلت إلى أسماع الحسين بن محمد، وهو الشاعر المتمكن، فاستغرب من الزيات تكريره «نائي وداني» في البيت الذي مرّ بنا استغراب الناقد الذي لا يجد إلى السكوت على هذا التكرير سبيلاً، فوجه للزيات نقداً ضمنه قصيدة طويلة منها قوله:

وشاعر قال قول حكم
وكل شيء له معاني

أحسن في وصفه ولكن
أَكْثَرَ من (نائي وداني)

أنشدنيه فتى جواد
بنى له المجد خير باني

وردّ الزيات على الحسن بن محمد بقصيدة، هي وإن كانت ليست في المستوى الذي عرف به الزيات في الكتابة النثرية، أفضل من قصيدته الأولى التي نقدها الحسين بن محمد، فمن أبيات القصيدة التي رد بها الزيات على الحسين بن محمد قوله:

ما غير الربع والمغاني
إلا صروف من الزمان

يا صاحبي وأنتما لي
كموضع الكف في بناني

قفا علي فمتعاني
أو لا فسيرا وودعاني

فمن رغب الاطلاع على هذه التقاولات فليراجع «ديوان ابن الزيات».

راشد الكاتب... يستهدي الكاتب الزيات

وفي ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات إشارة إلى أن راشد الكاتب كان قد طلب إلى الزيات لمَّا علم أنه سيتوجه إلى الحج أن يدعو له، وأن لا ينسى أن يهديه شيئاً من مكة المكرمة، فجعل ذلك في أبيات،٢ منها قوله:

لا تـنـسـى عـهـدي ولا مـودتـيـه
واشـتـق إلـى طـلـعـتـي ورؤيـتـيـه

إن غـبـت عـنـكـم فـلا تـغـب كـثـر
ة الـذكـر ولا تـغـفـلـن هـديـتـيـه

الـتـمر والـمقـل والـمساويـك والـور
س وخـيـر الـنـعـال حـسـن شـيـه

فإن تجاوزت ما وصفت إلى العَصْـ
ـب فـذاك الـمـأمـول مـنـك لـيـه

وحج الزيات وأحضر معه حينما عاد من مكة المكرمة الهدية التي كان راشد الكاتب يطمع فيها من الزيات، كما جاء في الأبيات السالفة والتي حدد فيها نوع الهدية.

والذي يضفي على تهادي الشعراء فيما بينهم أنهم لا يتركون الهدية تذهب سدى بمجرد استهلاكها أو تطاول العهد عليها، أو انقطاع ذكرها بمجرد موتهم، بل يجعلون لها مكاناً في صفحة التاريخ، لأنهم يحرصون على أن تكون هداياهم مرفقة بأشعار تخلد ذكراها من ناحية،

وتبيّن نوعها وحجمها وما إلى ذلك من أوصافها وقيمتها المادية والمعنوية والأدبية من ناحية أخرى. مع ما يتخلل مراسلاتهم الشعرية المعنية بذلك من مداعبات أدبية.

ويبقى أن أشير إلى أن الوزير الزيات، قد كتب مع هديته التي أهداها لراشد الكاتب قصيدة بلغت خمسة عشر بيتاً استعرض فيها امتنانه وارتياحه لطلب راشد الكاتب. ويذكر فيها أنه ما نسيه من الدعاء له، وذلك بقوله:

بـأبـي أنـت مـا نـسـيـتـك فـي
يـوم دعـائـي ولا هـديـتـيـه

ناجيت بالذكر والدعاء لك اللّه
لـدى الـبـيـت رافـعـاً يـديـه

ثم يقدم له الهدية التي طلبها وحدد نوعها، وذلك بقوله:

وقـد أتـاك الـذي أمـرت بـه
فـاعـذر بـكـثـر الأنـعـام قـلـتـيـه

وذاك مـن سـيـدي بـنـعـمـتـه
لـيـس بـحـولـي ولا بـقـوتـيـه

○ ○ ○ ○ ○

الانتصار للشعر

وقفت الشاعرة الدكتورة إخلاص فخري عمارة منافحة عن الشعر، ومتصدية لمن اتهمه بالضعف في قصيدة لها. منها قولها:

وقـالـوا بـأن الـشـعـر ضـعـف ورقـة

وأنـي لـهـمـس خـافـت أن يـسـيـطـرا

وإذا ما وصف الشعر بالرقة والعذوبة واللين فإن هذا لا يعني أن به ضعف ورخاوة؛ لأن هذه الصفات وإن كانت موجودة في جانب من جوانبه لا تحول دونه ودون أن يكون أداة استنهاض للهمم، وإشارة انطلاق إلى ميدان الحرب، فهو المجن إذا ما انقلب آذى.

تقول الدكتورة إخلاص، مجيبة على القول الذي ضمنته البيت السابق:

لأنفذ في الطعن السيوف رهيفة

وأقوى قوى الإنسان ما كان أصغرا

وهل هاج في الجيش الحماس وحثه

فـحـقـق بـالإقـدام نـصـراً مـؤزّرا

سوى شاعـر غنَّى بأمجاد شعبه

وطـاول بـالأوطـان عـزا وفـاخـرا

وفي مجال الاصلاح نجد أن الشعر من أقوى الأساليب المؤثرة، ومن أفضل الوسائل التي تعيد المياه إلى مجاريها الطبيعية، فكما أنه يقيم الحرب ويذكي أوارها، فهو كذلك يقعدها ويُطفؤها ويضع أوزارها وإلى هذا تشير الدكتورة إخلاص في نفس القصيدة قائلة:



وهل يعصم العقل الجموح إذا طغى
وحاد عن الدرب القويم تجبرا

سوى همة في بيت شعر منغم
تخاطب في الأعماق أصلا وجوهرا

فتوقظ غافي القلب والحس والنهي
وإذ بالجماد الصلب ذاب مشاعرا

وقصيدة الدكتورة إخلاص عمارة في موضوع إثبات تأثير الشعر في عموم الحياة، ومحاولة انتصارها له طويلة نسبياً؛ حيث تبلغ نحواً من أربعة وعشرين بيتاً، هي موجودة في ديوانها «الطائر المهاجر»، وفي أحد أبيات تلك القصيدة، تتوجه بالكلام إلى الشعر نفسه طالبة إليه أن يقف مواقفه المعهودة منه، وأن لا يتقاعس عن أداء رسالته ومهمته العظيمة، وأن يمضي في نهجه التوجيهي غير ملتفت إلى أقوال من يرميه بالضعف. تقول الشاعرة إخلاص عمارة:

ويا شعر هذب في النفوس شعورها
وبدد غشاوات العيون لتنظرا

○ ○ ○ ○ ○

مناجاة الليل

الليل غالباً ما يكون الذلول المدللة للشعراء. فتراهم يمتطونه، ويسيرون به إلى حيث شاؤوا، ويحملونه من ثقل آهاتهم، وحر أناتهم ما يحملونه.

وفيه، ومنه - وأعني بذلك الليل - تنطلق ألسنتهم حيناً بما يعانقها من خواطر ذات اتجاهات مختلفة فيسطرون على صفحاته تجلياتهم حيناً، وحيناً يجعلون منه مادة لخيالاتهم فيتناولونه من جميع جوانبه. وبكل صفة من صفاته: ظلامه، سكونه، طوله، قصره، نجومه، وحشته وأنسه.

وذلك وفقاً لما يخلّفه من ظروف يَستَرُ بها بعضهم، ويستاء منها الآخر. ولهذا فهم - وأعني بذلك الشعراء - لم يتحدوا على ذمّه والتضجر من حلوله. ولا على مدحه والاستبشار بقدومه. فهذا يرى في الليل سكوناً يناسب طبعه، وذاك يرقب نجومه ويناجيها في أسلوب توجدي، وثالث يرى في ظلامه فرصة يختلسها من عين الرقيب، ورابع يظهر استياءه من طوله الذي لم يعهده لعدم تفرده ووحدته.

وهكذا كلٌّ يبوح بما يتفق وما يوحيه الليل إليه.

والشاعر السعودي عبد الرحمن صالح العشماوي أحد الشعراء الذين عبّروا عن أحاسيسهم نحو الليل، وصوَّروه فيما يتراءى لهم من الصور، وقد كانت صورته في عين العشماوي في وقت من الأوقات ثقيلة ومقرفة إلى حد ما.

ودليل ذلك ترجيح الضياء في المعادلة التي أقامها بين الضياء والظلام في قصيدته «أيها... الليل»، والتي منها قوله:



أيـهـا الـلـيـل صـرت عـبـئـاً ثـقـيـلا
لـيـت شـعـري مـتـى سـتـنـوي الـرحـيـلا

كـنـت عـنـد الـغـروب جـسـمـاً قـصـيـراً
نـاحـلاً كـيـف صـرت ضـخـمـاً طـويـلا

كـنـت بـالأمـس واقـفـاً عـنـد بـابـي
ربـمـا كـنـت تـطـلـب الـمـسـتـحـيـلا

كانت الشمس - حينها - في شموخ
واعـتـزاز وكـنـت أنـت الـذلـيـلا

ليت شعري متى اقتحمت حماها
وتـسـورت حـصـنـهـا الـمـقـفـولا

ومنها قوله مخاطباً الليل:

كـيـف تـمـشـي عـلـى فـؤادي الـهـويـنـى
أو مـا تـرحـم الـفـؤاد الـعـلـيـلا

أيـهـا الـلـيـل مـا فـقـدنـا الأمـانـي
أن يـجـيء الـصـبـاح مـهـراً أصـيـلا

ومنها قوله:

أيـهـا الـلـيـل لـو قـرأت فـؤادي
لأجـدت الـتـفـسـيـر والـتـحـلـيـلا

○ ○ ○ ○ ○

إن كـــان

ظافر الحداد شاعر فاطمي، اسمه ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله، ينتمي إلى جري من بني جذام.

قال الدكتور حسين نصار: وامتهن أبوه ـ يعني بذلك ظافراً ـ الحدادة، فسمي الحداد. ويعرف أيضاً بابن الإسكندرية، له ديوان تخلل معظم قصائده أبيات من الحكمة والنصح والإرشاد، مما يجعل القارئ يجد المتعة في قراءته وفائدة من دراسته.

ولقد استوقفني من تلك القصائد، قصيدة كلها مشحونة بالحكمة التي تعالج واقع الناس الذين يحسدون غيرهم على ما هم عليه من سعة في العلم والمال والخلق. ويأتون بتعليلات يريدون بها إبطال مفعول أي كسب قد حصل عليه أصحاب الهمم العالية.

والتقليل من شأن الذين يجدون ويجتهدون في سبيل الوصول إلى المكانة الاجتماعية التي يشار إليها بأصابع الشرف والرفعة.

ولقد كان اختياري لنقل أبيات من القصيدة التي أشرت إليها قد جاء بناء على وجود «أن الشرطية» المقرونة «بكان» التي تصدرت معظم أبيات متتالية منها. أما مطلع القصيدة فهو:

أرى الناس قد أغروا ببغي وغيبة

وقدح ما ميز الأمر عاقل

ثم بعده بثلاثة أبيات انطلق يستعرض التعليلات الفاسدة؛ بل الحاقدة والتي أشرت إليها آنفاً مستصحباً في مطلع كل بيت ـ إن كان ـ وبهذه الصورة:



إذا كـان ذا ديـن رمـوه بـبـدعـة
وسـمـوه زنـديـقـاً وقـالـوا مـجـادل

وإن كـان ذا زهـد يـقـولـون: أبـلـه
ولـيـس لـه حـزم ومـا فـيـه طـائـل

وإن كـان ذا صمت يقولون: صورة
مـمـثـلـة لـلـعـي بـل هـو جـاهـل

وإن كـان مـن بـيـت يـقـولـون: إنـمـا
يـفـاخـر بـالـمـوتـى ومـن هـو زائـل

وإن كـان مـقـدامـاً يـقـولـون أهـوج
وإن كـان ذا جـبـن يـقـولـون: نـاكـل

وإن كـان ذا مـال يـقـولـون: مـالـه
من السحت قد أربى وبئس المآكل

وإن كـان ذا فـقـر فـذلـك عـنـدهـم
حـقـيـر مـهـيـن يـزدريـه الأراذل

والأبيات لها بقية منعني من إيرادها شرطي لتأليف هذا الكتاب والذي أشرت إليه في المقدمة.

أما الجدير بالذكر هنا؛ فإن هذه الأبيات مطابقة في معناها ومفهومها وهدفها وكلماتها ووزنها لأبيات ستأتي لابن دريد تحت عنوان: «ابن دريد و(إن) الشرطية».

○○○○○

البيت الضيق

قالوا: البيت قبر الدنيا. وقالوا: سعة البيت من سعة الرزق.

ومنذ أن عرف الإنسان البناء والعمارة وهو يحاول جاهداً التفنن في الشكل الهندسي للعمارة حتى صار له شأن عظيم انتهى به إلى التفكير في الإبداعات المعمارية التي يستهوي الناس جمال صنعها، ويرغبهم في بناء بيوتات وفق قواعدها ونظامها المعماري، وأشكالها الهندسية البديعة.

واهتمام الناس بأمر البيت وترتيب حجراته ومظهره الخارجي وما تضفيه الهندسة المعمارية عليه من جمال، كان مدار كثير من الأحاديث الأدبية التي لا تخلو من الطرافة ومن التصوير الخيالي حيناً، ورسم الواقع الحقيقي حيناً آخر.

وبناء على بعض التعقيدات التي دخلت بالبيت بشكل عام في مجال التطور الحضاري القائم على العنصر المادي الذي هو قوام حياة الإنسان؛ ولأن الإنسان بطبعه يحاول مسايرة عصره بأسلوب فيه تجديد من صنع يده فإننا نجد بحكم مبدأ الحياة السائدة اختلافاً طبقياً في الميدان الاقتصادي. وهذا هو ما يجعل بعض الشعراء الذين لم يكن لديهم فسحة من العيش تمكنهم من امتلاك بيوت ترتاح إليها نفوسهم وتطيب بها خواطرهم يصوّرون حالة بيوتهم ويصفون معاناتهم من ضيقها بأسلوب هزلي حيناً وجاد حيناً آخر، وكثيراً ما يتمادى بهم الوصف ويجرهم إلى الدخول في المبالغة.

ولقد استظرفت في هذا الموضوع ما قاله الشاعر الفاطمي ظافر

الحداد في وصف بيت ضيق، حيث يقول بأسلوب هزلي إلا أن فيه تصويراً لواقع ذلك الإنسان الذي شكا له ضيق بيته:

بيت كصدري ورزقي
ضيقاً كخَلْقِي وخُلُقِي

ملأته مع هزال
معي وسقمي ودقي

فالتز عضو بعضو
مني وعرق بعرق

حتى لقد كاد فيه
كعبي يصافح فرقي

فما يطيق لساني
يدور في وسط شدقي

ولو تجشأت فيه
لما تجاوز حلقي

أمنت فيه من الموت
وهو يدمن خنقي

لأن روحي لم تلـ
ق فسحة للترقي

○○○○○

ذكرى الحامد لبيته الطيني

ومن الكتّاب والشعراء من تكون له عطاءات متواصلة ومتنوعة، فمنها ما يربط الحاضر بالمستقبل، ومنها ما يقيم مقارنة بين القديم والحديث، ومنها ما يشمل الكثير من أصعدة الحياة، اقتصاديها، واجتماعيها، وثقافيها.

والملاحظ أن الوقفات التي من خلالها يحاول بعض أصحاب الأقلام، وخاصة منهم الشعراء تصوير واقع لسنين عجاف مروا بها، تكون قليلة الوجود.

وإذا ما أشاروا إليها فإن إشارتهم تلك تكون شبيهة بمراجعة الحلم الذي تختزنه الذاكرة، وتستعيد نشره للادّكار حيناً. وحيناً بقصد التفكه بالحديث عنه، حيث انتهت فاعلية تفسيره. ولهذا فإن كثيراً ممن تحملهم أجنحة الشوق إلى الحديث عن الماضي وما فيه من ذكريات متصلة بما كانوا عليه من حالة اقتصادية يستظرفون إعادة صياغتها حيث تغيرت أحوالهم المادية تغيراً إيجابياً ليس للمقارنة بما هم عليه من حال مجال. فيذكرون أشياء كثيرة كانت ذات شأن في أولى حياتهم، ويصورون واقع أمرهم آنذاك في قطع نثرية وأبيات شعرية مليئة بالمداعبات التي تجمع بين الواقع التاريخي للحالة الاقتصادية التي كانت سائدة في ذلك العصر الذي خلفوه وراء ظهورهم، وبين العبارة الساخرة التي يستملحها القارئ لأمرين: طرافتها، وصدق واقعها.

وكم من شاعر أبدع بأسلوب ساخر في وصف ما كان عليه من حالة مادية متردية لا تقاس بما وصل إليه من تطور بأي نسبة كانت. لكن ذاكرته لا تتخلى عن التحليق في سماء ذلك العصر لترسم صورة يتبلور فيها المشهد الحقيقي لمسكنه ومعيشته وملبسه.



وهذا الشاعر السعودي الدكتور عبد الله الحامد يستجيب لذاكرته، فيسجل قصيدة نشرتها له «المجلة العربية» في عددها ١٤٩، جمادى الآخرة ١٤١٠هـ، التي تصدر في مدينة الرياض. وفيها يصور حالة بيته الطيني الذي عاش فيه هو وأولاده حقبة من الزمن. من تلك القصيدة قوله:

سكنته والنفس مجروحة
قد خانها الحظ وعز القرار

جدرانه مطلية «جصة»
سودها الدهر بنار وقار

وقوله:

قد ترك الجدران مخروقة
جيش من النمل وقطعان فار

وقوله:

السقف ويل السقف كم ليلة
قد فرقعة أخشابه كالجرار

مقوس الأخشاب محنيها
محدودب الظهر كفخ «الضرار»

إن أغلق الأطفال باباً له
سمعت صوتاً منكراً كالخوار

إن دخل الشارع سيارة
تجاوبت أخشابه واستجار

ويختمها بقوله:

أحب ذكراك فقد كنت لي
جزءاً من العمر وظلاً معار

شاعر يذم داره

الشعراء لا يغمضون أعينهم على شيء يعكر صفو حياتهم، وهذا ما يجعلهم يأتون بأشياء طريفة، وربما تكون مضحكة، وعلى هذا فنحن نراهم يجعلون من أي عارض ولو بسيط موضوعاً يطلقون فيه ألسنتهم. بل ربما أنهم إذا أبطأ بهم ما يحرك خواطرهم الشعرية راحوا يتحسسون في نفوسهم عن عامل يبعث فيهم روح الشعر، ويتخذونه هدفاً يصوبون نحوه ألسنتهم كهجائهم لأنفسهم أو مداعبتهم لأولادهم، أو حتى حيواناتهم، أو غير ذلك مما يمتلكونه.

وكم استوقفوا زمانهم يسألونه فأتوا بإجابات كلها عجب، وربما فيها تندر، ولكنهم يخلفون بذلك أدباً رفيعاً من نوع خاص.

والشاعر الأعمى، واسمه كمال الدين علي بن محمد بن المبارك واحد من الشعراء الذين لهم لمسات في أشيائهم الخاصة وما يمتلكونه، قد ذم داراً كان يسكنها ذماً مقذعاً في قصيدة بلغت ستة وثلاثين بيتاً كلها وصف لداره التي صورها، وجعل منها بؤرة لكل زاحف وطائر مؤذي ومشؤوم، فبالإضافة إلى ما ستقرؤه في الأبيات الثمانية يقول: إنها مسكن للجرذان وبنات وردان، والنمل السليماني، والوزغ، والعقارب والزنانير، والعنكبوت، والبوم، والغربان. ووفقاً لشَرْطِي في تأليف هذا الكتاب ـ وهو الاقتصار على الاستشهاد بثمانية أبيات ليكون أدباً مثمناً ـ أُورد من قصيدة الأعمى قوله في داره تلك:

دار سكنت بها أقل صفاتها

أن تكثر الحشرات في جنباتها

الخير عنها نازح متباعد
والشردان من جميع جهاتها

من بعض ما فيها البعوض عدمته
كم أعدم الأجفان طيب سناتها

وبها ذباب كالضباب يسد عين
الشمس ما طربي سوى غناتها

وبها من الخطاف ما هو معجز
أبصارنا عن وصف كيفياتها

وبها خفافيش تطير نهارها
مع ليلها ليست على عاداتها

وبها خنافس كالطنافس أفرشت
في أرضها وعلت على جنباتها

لوشم أهل الحرب منتن ريحها
أردى الكمأة الصيد عن صهواتها

○○○○○

الواشي والوشاية!!

لعله يصح لي وصف الواشي إذا قلت: إنه أشبه بالزند الذي يقدح الشرار بجانب تيار من الغار المضغوط. ويدخل تحت مفهوم الوشاية كل من نمّ واغتاب، سواء كان ما ينقله من حديث له من الصحة مكان أم لا. أو أنه يجيد التلفيق والتأفيك. ويقول ما لم يُقَل ليوجد عداوة بين صديقين فيحمل هذا على ذاك، حتى يكون الصدام وتحل البغضاء بينهم محل التآخي. والقرآن الكريم قد نبّه إلى عمل الواشي، وأمر بأخذ الحيطة منه، والتثبت مما يلقيه من كلام يقصد به الإثارة. وذلك باستقصاء الحقائق والتوثيق وتبيين صحة ما يأتي به ذلك الذي وصفه القرآن الكريم بالفاسق.

قال تعالى في سورة الحجرات آية ٦: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦﴾.

وللشعراء وقفات تنبيهية، بل تحذيرية من الذين ينقلون الأخبار الكاذبة ويلصقون بالآخرين التهم، وينسبون إليهم أقوالاً لم تصدر عنهم البتة ليحملوا بعض الناس على بعضهم، ويزرعوا بينهم شجرة العداء.

وللشاعر السعودي المعاصر زيدان حسين عبد الله الأنصاري أبيات تناول فيها تلك القضية. منها قوله:

صديقان مذ كانا صغيرين في المهد
صديقان في اللهو البريء وفي الجد

إذا ما يمر اليوم دون تشرف
بلقياهما فاليوم ليس من العدّ



وفـي ذات يـوم أسـدل الـشـر ثـوبـه
علـى خـيـر ود قـد تـلاقـى علـى ودّ

فـقـد نـعـق الـواشـي بـوسـط حـديـقـة
تكاد تضيء الأرضِ من وفرة السعد

فــقـــال لـــهـــذا إن ذاك يـــنـــالـــه
بـشــتـم وأهـوال تـؤثّـر فـي الـعـبـد

وراح لـذاك الـخـلّ يـوغـر صـدره
عـلـى خـلّـه حـتـى تـوعّـد بـالـردّ

ومنها قوله:

وصـاح مـنـادي الـحـي يـنـعـاهـمـا مـعـاً
لقد فرح الواشي فهل هذه تجدي

لـقـد قـال رب الـعـالـمـيـن تـبـيـنـوا
إذا جاءكم علم من الفاسق الوغد

○○○○○

فقدنا فيه

قلّ أن نجد شاعراً إلا وله من القول في الرثاء نصيب.

والقول في الرثاء لا يعدو عن كونه مديحاً؛ غير أن الذي يميز المديح، هو أنه موجه توجيهاً مباشراً لإنسان ما زال على قيد الحياة. وأن الرثاء هو مديح يتضمن ذكر مآثر حميدة وأفعال طيبة كان يمارسها من وافته المنيّة، وانتقل من الحياة، وبالإضافة إلى ذلك فإن الرثاء ينطوي على استحثاث عقب الميت بالالتزام بطريقته وسيرة حياته وتجديد أثره، ومواصلة أعماله.

ومما يتميز به الرثاء عن المديح أنه لا يخلو من التوجّع والتفجّع والأسى، والحرقة على الميت، وإظهار الخوف في بعض الأحيان بأن لا يسدّ مسدّه أحد من الأحياء بعده، وأن يترك موته فراغاً في أمور كثيرة يكون الناس في أمسّ الحاجة إلى شغلها. ولهذا فإن للشعراء في نظم المراثي مذاهبَ ربما حكمت معظمها الحالة الاجتماعية التي كان عليها الميت.

والشاعر محمد بن عبد المطلب بن واصل يعد واحداً من الذين تطرقوا لموضوع التخوف من حدوث الفراغ بسبب موت الزعيم سعد زغلول. قال ذلك في قصيدة طويلة بلغت نحواً من مائة وستة أبيات، رثى بها زعيم مصر سعد زغلول واتكأ في عدة أبيات متوالية فيها على قوله: «فقدنا فيه»، من ذلك قوله:

فـقـدنـا فـيـه مـعـدل كـل رأي
إذا مـا أعـوز الـرأي الـصـحـاح



فقدنا فيه مأمن كل خوف
إذا ما الحي فزعه الصباح

فقدنا فيه حكمة ذي أناة
إذا ما الحكم أعوزه النجاح

فقدنا فيه عزة ذي إباء
منيع حيه لا يستباح

فقدنا فيه عزمة ليث غاب
يخاف مضاءها الليث الوقاح

فقدنا فيه فطنة ألمعي
يضيء بلمعها الأمر البراح

فقدنا فيه محتد خندفي
نماه المجد والحسب الصراح

فقدنا فيه طلعة أريحي
إلى المعروف والحسنى يراح

○ ○ ○ ○ ○

العنوسة مشكلة تبحث عن حلّ!!

المشكلات الاجتماعية تنشأ أول ما تنشأ من أمور بسيطة، ربما كان التساهل أو التجاهل سبباً من أسباب تطورها واستفحالها، هذا إذا صرفنا النظر عن التعنّت والاستبداد بالرأي، وعدم الشعور بإحساس الآخرين الذين يفرض عليهم الوضع الاجتماعي الصمت، وعدم البوح بما يخالج النفس من توجدات ورغبات وتطلعات مستقبلية.

ومن تلك المشكلات الاجتماعية التي أوشكت أن تعمّ كل بيت، وتبقى فيه ما بقيت به بنت بلا زوج.

مشكلة العنوسة التي ربما كان السبب في ظاهرة وجودها والد العانس، الذي انعدمت فيه روح الإحساس، وقتل الجشع فيه معنى الأبوة.

وليس للغفلة عن هذا الأمر وصف إلا كالغفلة عن شرارة النار التي تبدو صغيرة، ثم تتحول بسرعة من شرارة إلى حريق يلتهب حارة.

وموضوع العنوسة في زماننا هذا أصبح هو قضية المجتمع، وهو محور تفكر كثير من الكتّاب وأصحاب الرأي. إذ لا نحصي ما ينشر عنه من مناقشات ودراسات جادة تلقي باللائمة على عدة أطراف، يأتي في مقدمتها والد العانس، ثم الشاب الذي وصف بالعزوف عن الزواج لأسباب أهمها: المادة، وتكاليف الزواج، وأمور أخرى لا يتسع المجال هنا لذكرها.

ولقد كان للشعراء مساهمة فعّالة في عرض قضية العنوسة وطرحها على بساط البحث، بدليل أننا نراهم يلقون بين حين وآخر بقصائد تعالج المشكلة، ويصفون من خلالها حلولاً مناسبة.



والشاعر عبد الله بن حمد الشبانة واحد من الشعراء السعوديين المعاصرين قد أدلى بدلوه في بحث تلك القضية بصورة مباشرة. ففي قصيدة له عنوانها: «آهات عانس» يقول على لسان عانسة:

أنا لا أريد سوى الزواج فمنيتي
بيت سعيد بالهناءة يعمر

أبني به للحب صرحاً عالياً
وأظل في أفيائه أتبختر

أَمَلي تحطمه قساوة والدي
وهواي يقتله أخي المتجبّر

وهما يعيشان الحياة - مباهجاً -
لا تنتهي ولذائذاً لا تحصر

والحب بينهما حلال إنما
هو للتي لا تشتكي متعذر

حتام يا أبتي أظل حبيسة
وعلى دونكم السعادة تحذر؟

وإلام تتركني أسيرة وحدتي
نهباً لأحلام علي تسيطر؟

فاغنم شبابي اليوم قبل رحيله
فغداً علي إذا ذوى تتحسر

○○○○○

لزوميات أبي العلاء المعرّي

عنّ لي أن أكتب شيئاً عن أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّي فاخترت من بين مؤلفاته «اللزوميات» لكنني أمام هذا الطود الشامخ تصاغرت جداً، وكدت أعيد القلم إلى رمسه لكن بقية العزم والإصرار على الكتابة عنه جعلتني أفتش عن شيء آخر له ارتباط بلزومياته فوجدت ما يشجع على ذلك.

ولعل من غريب الصدف أن يعارضه شاعران سميان له: أحمد مخيمر، وأحمد الشامي، وسأذكر كل منهما تحت عنوان مستقل يلي هذه النبذة إن شاء الله.

أما أبو العلاء المعرّي فأني لا أجد أبلغ ولا أصدق من قوله عن لزومياته فيما جعله مقدمة لها.

يقول: كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق، توخيت فيها صدق الكلمة، ونزّهتها عن الكذب والمين، ولا أرغمها كالسمط المتخذ وأرجو أن لا تحسب من السميط، فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد، ووضع المنن في كل جيد، وبعضها تذكير للناسين، وتنبيه للرقدة الغافلين، وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول.

وقد استطرد في مقدمته هذه أغراض الشعر ومعاييره، ونبَّه إلى لزومه ما لا يلزم فيه ثم ختم تلك المقدمة التي لا غنى لأي شاعر أو ناقد عن قراءتها بقوله: وقد كنت قلت في كلام لي قديم: إني رفضت الشعر رفض السقب غرسه والرأل تريكته. والغرض ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظامه بالشبهات. فأما الكائن عظة للسامع،

وإيقاظاً للمتوسن وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغش والمكر، فهو إن شاء الله مما يلتمس به الثواب. أما لزومياته الرائعة على حرف الثاء، فمنها قوله:

أيا أرض فوقك أهل الذنوب
فهل بك من ذاك هم وبث

وقد زعموا النار مبعوثة
تهذب ممن عليك الخبث

وسيان ماض قصير المدى
وآخر باق طويل اللبث

وخلقك من ربنا حكمة
لقد جل عن لعب أو عبث

وهل يحفل الجسم في رمسه
إذا جاءه حافر فانتبث

ويقول:

شبابي أكفاني ورمسي منزلي
وعيشي حمامي والمنية لي بعث

ويقول:

لا يرهب الموت من كان امرءً فطناً
فإن في العيش أرزاء وأحداثا

وليس يأمن قوم شر دهرهم
حتى يحلوا ببطن الأرض أجداثا

 o o o o o



أحمد الشامي
ولزومه ما لا يلزم في الشعر

قال أحمد محمد الشامي في مقدمة لزومياته: لقد سخرت من نفسي حين راودني النزوع إلى مجاراة شاعر الإسلام أبي العلاء المعرّي في لزومياته ورددتها بادئ بدء رداً غير جميل. ولكنها ـ وهي الأمارة ـ أعادت الكرة، وظلت تغريني وتشغل يقظتي ومنامي، وتهجس في خاطري رغم أنفي متمتمة بالقوافي المصفودة. وكلما أمعنت في الإعراض، اشتطت في الإقلاق، واستسلمت، وبدأت أتسلق ذلك الجبل الأشم الشاهق وأروّض أنفاسي على اقتحام شناخيبه، وكثيراً ما كانت تخر لاهثة في سفوحه، ومطامحها تتطلع إلى قممه ضارعة خاشعة ثم تهدج من جديد.

والمعرّي في لزومياته شاعر عملاق ومعارضتها عمل شاق.

وفي ختام مقدمته يقول: ولقد أودعت في لزومياتي خلاصة مجريات حياتي فهي سجل تجاربي ونوتة مذكراتي، رسمتها في أوزان وقوافي وغنيتها كالطائر الحر على فنن ورتلتها كالعابد البر في المحراب، وفيها مقاطع تضرعت بها فهي مترعة بالدموع مدلهة بالخشوع تائهة في اللارجوع.

يقول الشامي في قصيدة من قصائد لزومياته هذه:

سفينة العمر في بحر الحياة مضت
لها شراعان إصباح وإمساء



فـيـهـا بـضـائـع آمـال أحـيـلـة
ومـا لـهـا غـيـر شـط الـقـبـر إرسـاء

ومن قصيدة أخرى يقول:

مـن تـنـادي مـن تـسـتـفـز وتـرجـو؟
دهـــرك الـــيـــوم أذنـــه صـــمـــاء

فـتـك الـشـر بـالـطـبـائـع واسـتـشـرى
فـــلا رحــــمـــــة ولا رحـــمـــــاء

ومن قصيدة أخرى يقول:

دعوني وحزني في محاريب عزلتي
بـعـيـداً عـن الـزّوار والـنـدمـاء

فـقـد هـرمـت أيـام لـهـوي وأوشـكـت
حـيـاتـي ومـا فـي الـروح غـيـر ذمـاء

ومن قصيدة أخرى يقول:

كـريـم مـن يـجـود عـلـى كـفـاف
ويـــوم الـــبـؤس لا يـــوم الـــرخـــاء

ومـن يـجـعـل أخـاه لـه شـريـكـاً
إذا أثـــرى يـــكـــن مـــثـــل الإخـــاء

○ ○ ○ ○ ○

أحمد مخيمر
يعارض بلزومياته لزوميات أبي العلاء

لقد أحدث أبو العلاء المعرّي بلزومياته نظاماً جديداً في الشعر العربي، وطرق باباً لم يطرقه أحد من الشعراء قبله، إذ جعل إلى جانب الروي في البيت حرفاً آخر لا لزوم له في الشعر.

وليس من تفسير لإحداث هذا النظام الذي ألزم به أبو العلاء نفسه إلا القول بأن أبا العلاء قد انتهى إلى عمق في مفردات وأصول اللغة لم يصل إليه أحد من الشعراء، ولهذا فإنه ليس مستغرب عليه أن يأتي بمثل هذا النظام في بناء الشعر، كيف لا وهو الذي قد قال عن نفسه: سآتي بما لم تستطعه الأوائل.

ولقد تعشق كثير من الشعراء الذين أتوا من بعد أبي العلاء نهجه ونظامه في بناء القافية، إلا أنه حال بينهم وبين تطبيقه عدم الإحاطة الكاملة بمفردات اللغة وأسرارها، تلك الأسرار التي سخّرها أبو العلاء وجعلها جنداً من جنود بناء لزومياته، ومن هذا المنطلق التعشقي لذلك المنهج العلائي برز حتى الآن فيما أعلم شاعران، أحدهما: أحمد الشامي وقد سبق الكلام عنه، والثاني: أحمد مخيمر الذي أوجد فيه تعشقه لمنهج أبي العلاء دافعاً قوياً مكنه من التصميم على معارضة لزوميات أبي العلاء. فقال في لزومياته التي ربما يكتب لها البقاء، ولكنها لن تخلد، خلود لزوميات أبي العلاء؛ لأنه قد قيل: الفضل للمتقدم.

أقول: قال أحمد مخيمر في إحدى لزومياته التي قالها في أبي العلاء المعرّي:



شيخ المعرّة قد أعجزت من وردوا
إلى الحقيقة أو عن يمها صدروا

أضاء شعرك في الأجيال فالتفتت
نواظر الدهر واستأنى له القدر

هذا الخلود الذي قد كنت تنكره
وذلك الصفو لم يعلق به كدر

أهدى إليك كتاباً أنت باعثه
كالبحر أهدت إليه ماءه الغدر

ومن بين لزومياته قصيدة عنوانها: «أغنية»، منها قوله:

سألتك هل تدرين أنك فرحة
تغنت بها الآزال فالتفت الدهر

وعشت زماناً في ذراها صغيرة
ومهدك ينمو حوله العشب والزهر

وقد كان مثواك المغاور والرُبى
وملعبك الغاب المظلل والنهر

فلم تعلمي إذ ذاك أنك رغبة
وأشواق روح في جوانبها بهر

○○○○○

قالت وقلت

صفي الدين الحِلِّي: هو أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن نصر الطائي السنبسي نسبة إلى سنبس، بطن من طي: شاعر. قيل: إنه اتخذ قراراً ألا يمدح كريماً ولا يهجو لئيماً، وأنه نفذ هذا القرار في جميع أشعاره، وقيل: لعله أول شعراء عصره الذين تفننوا في أوزان الشعر فنظم موشحات، منها ما اتبع فيه ومنها ما ابتدعه.

ولصفي الدين في كل ضرب من ضروب الشعر وقفة بديعة وللحكمة نصيب وافر من شعره.

وقد سمى قصيدة من قصائده «الكافية البديعة في المدائح النبوية» وبها فتح طريق نظم البديعيات لمن جاء بعده؛ كابن معصوم مثلاً.

وبالإضافة إلى تفنن صفي الدين الحلي في ضروب الشعر ومناحيه الموضوعية، نجده قد نظم قصائد حروفها مهملة أو معجمة، أو خليط ما بين معجم ومهمل.

كما أن له كتاباً ضم إلى ديوانه اسمه «درر النحور في امتداح الملك المنصور»، وهو عبارة عن قصائد بعدد حروف الهجاء وقد تفنن في نظمها فالقصيدة التي قافيتها «ألف» مثلاً جعل كل بيت منها مبدوءاً بالألف، وكذلك التي قافيتها «باء» جعل كل بيت يبدأ بالباء، وهكذا حتى أنهى حروف الهجاء.

ومن بين قصائده كلها تقاولات: ـ قلت وقالت ـ، وعلى الرغم من التزامه بهذه التقاولات فقد فاضت دقةً وجمالاً. يقول فيها:



قالت: كحلت الجفون بالوسن
قلت: ارتقاباً لطيفك الحسن

قالت: تسليت بعد فرقتنا
فقلت: عن مسكني وعن سكني

قالت: تشاغلت عن محبتنا
قلت: بفرط البكاء والحزن

قالت: تناسيت! قلت: عافيتي
قالت: تناءيت! قلت: عن وطني

قالت: تخليت! قلت: عن جلدي
قالت: تغيرت! قلت: في بدني

قالت: تخصصت دون صحبتنا
فقلت: بالغبن فيك والغبن

قالت: أذعت الأسرار قلت لها:
صير سري هواك كالعلن

قالت: سررت الأعداء. قلت لها:
ذلك شيء لو شئت لم يكن

○ ○ ○ ○ ○

دهر صردر

قال أحدهم: كل من لاقيت يشكو دهره. وشكوى الناس بصفة عامة من الدهر لا تحصر، ولا تحصى، إذ أن كل أهل زمان يشكون زمانهم وأهل زمانهم.

ومنهم من يعلل شكواه ويبدي أسبابها، ومنهم من يضمرها مكتفياً بعبارات الشكوى، والتظلم والتضجر الرمزية التي يفسرها من ذاق مسها.

وإذا ما نظرنا إلى لب الشكوى وأهداف الشاكين، وجدنا اختلافاً كبيراً وتنوعاً متبايناً فيما يهدفون إليه من شكوى، إذ منهم من يشكو دهره بسبب قلة ما في يده، ويلوم أهل زمانه على عدم عطفهم عليه، والنظر إلى حاله، وهذه هي الأكثر وروداً، وهي التي تأتي في أساليب متنوعة وصور شتى.

ومنهم من يشكو اضمحلال النخوة وكثرة الجحود وتفشي الخيانة، وتمركز الأنانية وطغيان المادة. ومنهم من يشكو الدهر وأهله بسبب هبوط المستوى العقيدي في النفوس، وظهور المغالطات، والجدال فيما يضر بالأخلاق والدين.

والشعراء هم الذين يترجمون الجزء الأكبر من تلك الشكاوى في أشعارهم.

ولهذا فإنني مستشهد بأبيات لصردر، واسمه: أبو منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل، من قصيدة له يمدح بها أحد أصدقائه، مطلعها:



لأي مرمى تزجر الأيانقا
إن جاوزت نجداً فلست عاشقا

وفيها يصب شكواه على دهره الذي قال عنه أنه منّان. إذا قرى ضيفه يوماً وقدم له طعاماً شهياً فإنه عما قريب سيسقيه الأماني الكاذبة:

بعداً لدهر إن قرى أضيافه
سقاهم ماء الأماني ماذقا

قد كسد الفضل فما ترى
في سوقه للفضل علقاً نافقا

ومعجز أن لساني ناطق
عند زمان أخرس الشقاشقا

أكثر من تخبره من أهله
يظهر في دين الوداد فاسقا

غدر يغطي الذئب منه وجهه
ويخجل الخل الودود الواثقا

معاشر قد حفر اللؤم على
حريم أموالهم خنادقا

سيان إن عرضت طرفاً صاهلاً
عليهم أو عُدْتُ عيراً ناهقا

○○○○○

الفرقـدان

تكثر مناجاة الشعراء لبعض النجوم التي شاع ذكر أسمائها على الألسن، كالجوزاء، والجدي، وسهيل، والثريا، والمجرة، والفرقدان. وغير ذلك من النجوم سواء المتحرك منها أو الثابت الذي يهتدي به الساري في ظلمة الليل البهيم.

وعلاقة النجم بالإنسان العربي علاقة وثيقة مرتبطة بتنقله وترحاله في الصحاري. وبهذه الصلة الوثيقة لا يكون في الأمر غرابة عندما يقف الشاعر العربي في كبد الصحراء ويرفع رأسه إلى السماء مناجياً أنجمها وباثاً إليها ما يجول في نفسه، ويختلج في صدره من شجون، لأنه يجد في مناجاة تلك النجوم متنفساً يخفف من عناء السفر أو من قسوة الحياة، أو من أي لون من ألوان المعاناة التي يعايشها.

ولو أراد كاتب أن يحصر ما خوطب به النجوم من أشعار لأعياه ذلك؛ لأنه قلما نجد شاعراً ليس له مع النجوم وقفات، يبث من خلالها أحزانه لتلك النجوم.

أما كيف أن الشعراء يختارون مخاطبة النجوم أكثر من غيرها، فإن الإجابة على ذلك تحمل تعليلات كثيرة أهمها: أن النجم بعلوه وموقعه الجغرافي من الفضاء يأخذ الشاعر أخذاً يمد بينهما خيطاً وهمياً يتصور الشاعر أنه رقى منه إلى ذلك النجم الذي يخاطبه رقياً مسراوياً تتخلله تجليات في سكون الليل، ذلك الليل الذي يكون النجم فيه أقرب منه لمناجاة الشاعر.

ومن الشعراء الذين خاطبوا الفرقدان الشاعر السوري محمد محمود

البزم، فمن قصيدة طويلة عنوانها: «أيها الفرقدان» قال البزم:

أسعداني بعبرة أسعداني
وارثيالي يا أيها الفرقدان

وعيا القول فالحديث شجون
واصغيا لي إن كنتما تسمعان

ويقول:

نبئاني وأنتما ماثلان
لعياني أأنتما حارسان

ويقول:

حدثاني أفيكما مثل هذي
فلوات تغص بالحيوان

يأكل الأيْدُ الضعيف ويغذي
جارح الطير من دم الكروان

أم خلاء وما أخال خلاء
خبّراني وخفِّفا أحزاني

هل يرى فيكما شعوب كهذي
فرقتها مذاهب الأديان

هل يرى فيكما الجيوش تبارى
في عداء تؤم ساح الطعان

ooooo

عاقبة الظلم في الدنيا

قال بعض الصالحين: من رآني فلم يظلم أحداً. فقيل له: وما السبب في ذلك؟ قال: بينما أنا أمشي على ساحل البحر إذ رأيت صياداً ومعه سبع سمكات، فطلبت منه واحدة فأبى، فأخذتها منه كرهاً وضربته على رأسه فعضت السمكة إبهامي، فآذاني ذلك أذى شديداً، وتحيرت في أمري مما أنا به من ذلك الألم، واتفقت الأطباء على قطعه إن لم يجدوا لذلك دواءً مطلقاً، فقطعته، فلما قطعته وقعت الأكلة في كفي وسائر عضدي، وحصل لي من ذلك ألم شديد فخرجت أسير في الأرض على وجهي فلم أجد لي ملجأً مما وجدته من الألم وأردت قطع يدي أيضاً، فآويت إلى شجرة في الطريق فنمت تحتها. فقيل لي في المنام: لأي شيء تقطع يدك يا هذا، اردد الحق إلى أهله. فانتبهت فزعاً مرعوباً وقمت مسرعاً إلى الصياد، وقلت له: إني أخطأت معك بالأمس، ولا عدت أعود فسامحني. فقال لي الصياد: ما أعرفك أبداً. فقصصت عليه القصة وعرّفته فعرف الصياد بذلك وتضرع إلى الله، فقمت قائماً والدود يتناثر من عضدي، وأنا قائم على قدمي، وسكن الوجع عني بإذن الله تعالى فقلت له: يا أخي لمّا أخذت منك السمكة غصباً بأي شيء دعوت به علي؟ فقال: لما ضربتني وأخذت السمكة نظرت إلى السماء وقلت: اللهم إني أسألك أن تجعله عبرة لمن يراه من خلقك. ومما قيل في ذلك شعراً، قول هبة الله البغدادي:

وتجنب الظلم الذي هلكت به

أمم تود لو أنها لم تظلم



وقول المتلمس:

ومن يبغي أو يسعى على الناس ظالماً
يقع غير شك لليدين وللفم

وقول أبي العلاء المعرّي:

والظلم يمهل بعض من يسعى له
وتحل نقمته بنفس الظالم

وله أيضاً:

لا شيء في الجو وآفاقه
أصعد من دعوة مظلوم

ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً
فالظلم مرتعه يفضي إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

ويقول محمد بن طلحة:

فلا تعجل على أحد بظلم
فإن الظلم مرتعه وخيم

ولا تفحش وإن مليت غيظاً
على أحد فإن الفحش لوم

○○○○○

ربما كان الظلام وسيلة للإلهام!!

ومن أصحاب الأقلام من لا ينصب شباكه للخاطرة إلا في هدوء الليل وظلامه حيث تشرق له الكلمات إشراقاً تتهافت نحوه التجليات المجنحة، وتتوقد أحاسيسه الفكرية توقداً يجترها من أعماقه خيط الظلام ليلقى بها فوق الطرس نثراً أو شعراً مسطراً.

والبحث فيما للظلام من فائدة غير الهدوء الذي يستلهم منه الشعراء خيالاتهم والمفكرون والأدباء ومعظم أصحاب الأقلام آراءهم، يطول ويتفرع فهو مسرح للعشاق، ومتعة للسراة، وظرف يقوى فيه المرء المتعبد على التهجد والعبادة.

وبعض الشعراء لهم نظرة خاصة ومتميزة تجاه الظلام. فهذا الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي، يقول من قصيدة عنوانها: «فضل الظلام» ومطلعها:

أطالع في ضياء الصبح كتباً
وأنظم في الظلام على ضيائي

إذا النور انتهى بغياب شمس
فلي نور يشع بلا انتهاء

وعلى الرغم من أنه يشير إلى أنه في ظلام دامس من الليل إلا أنه يحقق بواضح العبارة أن المعاني تلوح له ويراها أمامه؛ كأنما هو في رابعة النهار:

تلوح لي المعاني واضحات
كأني في نهار من ذكائي



وبما يستمده من نور فكري فهو لا يحتاج على حد قوله إلى نور القمر، ولا إلى ضوء الكهرباء:

فلست بحامل في الليل منأً
لنور البدر أو للكهرباء

ويرى أن اصطياد الفكرة واستبصار ما قد يخفى لا يتهيأ له إلا في سكون الليل وبإطفاء السراج:

وكم أطفأت في ليل سراجي
لأبصر فيه أسرار الخفاء

ويؤكد بأن النشاط الفكري يعاوده عندما يغضي بعينه فيرى مشاهد لا يراها المبصر في ضوء النهار:

وكم أغضيت عيني فانجلت لي
مشاهد لا تراها عين راء

مشاهد فاتنات في خيالي
كأني ناظر في سينماء

ويرى النجفي أن الذي يهرب من الظلام ويهوى النور القوي إنما هو عديم بصيرة وبه غباء. وهذا الرأي بالطبع خاص به وبفلسفته في تفضيل الظلام على الضياء:

ولا يهوى قوي النور إلا
عديم بصيرة وأخو غباء

○ ○ ○ ○ ○

أبكي

والناس حينما يرون رجلاً يضحك، لا يسألون عما سبب له الضحك، لكنهم إذا ما رأوا إنساناً باكياً وقفوا أمامه وأكفهم تشير إليه مستفهمة عن الأسباب التي أبكته. وهذا ليس بمستغرب منهم لأنهم قد جلبوا على حب الاستطلاع.

أما الأسباب التي تثير البكاء وتستنزف الدموع من الأعين فكثيرة ومتعددة.

فبدءاً بالحزن والمصائب وانتهاءً بالفرح الشديد يحدث البكاء وتنهمر الدموع.

أقول: انتهاء بالفرح؛ لأن هناك مواقف يكون للفرح فيها دمعة. ولكنها ليست كدمعة الحزن فلو أن دمعة الفرح حللت تحليلاً مخبرياً لوجد لها لون بل طعم مختلف عن بقية طعوم وألوان الدموع الأخرى.

ولا أريد هنا أن أعدد ألوان البكاء، ولا أن أعدد مسبباته فهي أكثر من أن أستقطبها في موضوع مختص كهذا الموضوع.

والذي أوجب الإشارة إلى البكاء هو ما جاء في قصيدة الشاعر الدكتور يوسف القرضاوي التي تضمنها ديوانه «نفحات ولفحات» وكان عنوانها: «دمعة وفاء» وهي قصيدة رثى بها - زكي الدين أبو طه - الذي كان قدوة حسنة في أفعاله وأقواله، وكان داعية مخلصاً، وقد أوذي وصبر وأدخل السجن عام ١٩٤٩م، وبعد خروجه من السجن انتقل إلى رحمة الله، فدمعت عين صديقه القرضاوي، وفاضت قريحته.



أما القصيدة التي رثاه بها فقد بلغت اثنين وعشرين بيتاً كرر فيها كلمة - أبكي - في مطالع ثمانية أبيات متوالية منها، وذلك بقوله:

أبكي وهل يشفي البكاء عليلاً
وقد انتوى عنا الحبيب رحيلا

أبكي وليس من البكا بد وإن
كان المصاب على القلوب خليلا

أبكي على غصن نما في روضة
للحق أذبله المنون ذبولا

أبكي على نجم أنار ضياؤه
دهراً وأسرع للمغيب أفولا

أبكي فتى فوق الثريا نفسه
يلقى الممات ولا يعيش ذليلا

أبكي فتى صلباً تكاد تخاله
عمراً يخيف ولا يخاف قبيلا

أبكي فتى إن ثار للحق انتضى
عزماً يفل الصارم المسلولا

أبكي فتى كان الجميع يعده
رجلاً وإن كان الرجال قليلا

○○○○○

من وسائل البحث عن الواقع

لعله من البديهي أن أقول: إن ملازمة البحث عن حقائق الأشياء تفضي بالمرء إلى آفاق واسعة من المعرفة بصفة عامة، وإن امتلاك وسائل البحث - المنطقي والعملي - تحقق للباحث أموراً تخفى على كثير من الناس، وخاصة الذين لا يكلفون أنفسهم أدنى جهد لتقصي الأمور، ويكتفون بالرؤية والسماع فقط.

والرجل الذي يهتم بالبحث المنطقي، ويأخذ منه بالجانب الذي يصور حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم، وما جبلوا عليه من خلال، هو الذي يستطيع وضع خريطة يرسم عليها بالألوان الموائمة لجغرافية طبائع الناس، وسلوك من تربطهم به علاقة.

أما الرجل الذي يهتم بالبحث العملي، أو المعملي بالأصح، فإنه يخرج بنتائج ملموسة ومرئية بالعين فبمعامله التجريبية وقدرته الجسدية، وطاقته الفكرية يجري التجارب على كل مادة طبيعية وغير طبيعية، فيتبين طبيعتها ومكونات جزئياتها، ثم يصف خصائصها ومميزاتها وفوائدها للناس.

أو يخرجها في مادتها الحقيقية بألوانها الأصلية الثابتة، فيعرفها للناس بما عرفها هو به.

كتعريف مادة الذهب التي خضعت في أوليتها لتجاربه فصارت ذهباً.

وبهذه المقدرة على البحث المنطقي والمعملي، يستطيع المرء أن يضع كل شيء في مكانه الطبيعي وفقاً لجوهره وخاصيته، لا لشكله ومظهره.



ولقد قرأت أبياتاً في كتاب «عيون المسائل من أعيان الرسائل» لمؤلفه: الشريف عبد القادر بن محمد الحسيني الطبري، ولم ينسبها إلى قائل، بل قال: وقيل. ثم ذكر الأبيات، وهي فيما أرى أقرب شيء للاستشهاد بها على ما تقدم، وهي:

ومن استحق الارتقاء فرقه
ومن استحط فحطه في حشه

واعلم بأن القبر في عرق الثرى
خاف إلى أن يستثار بنبشه

وفضيلة الدينار يظهر سرها
من حكه لا من ملاحة نقشه

أو أن يهان مهذب في نفسه
لدروس ملبسه ورثة فرشه

ولكم أخي طمرين هيب لفضله
ومفوف البردين عيب لفحشه

وإذا الفتى لم يغش عاراً لم تكن
اسماً له إلا مراقي عرشه

ما إن يضر العضب كون قرابه
خلقاً ولا البازي حقارة عشه

○○○○○

من أنصار المتنبي
في القرن الخامس عشر الهجري

روى محمد حسين زيدان الكاتب والأديب السعودي عن كامل الكيلاني، وهو يحاول في موضوع نشر في ملحق الأربعاء التابع لصحيفة المدينة السعودية أن يقلل من أهمية نقد أبي علي الحاتمي لشعر المتنبي. ولقد تجرأ زيدان على الحكم بأن الحاتمي مراده أن يعلن على القارئ أنه يعرف أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان الذين زعموا أن المتنبي قد سرق منهم الحكمة.

أما ما رواه عن الكيلاني فقد قال: تحدثت مع الكيلاني يوم قابلته مصادفة في مصر حديثاً اتصل إلى الحاتمي والمتنبي. فقال الكيلاني: لا يخلو الموضوع من أمرين: إما أن يدرك المتنبي بالتجربة ما أدركه أرسطو، فأتى بالحكمة وكأنها حكمة أرسطو هبة لن تتوقف على واحد، ولو كان أرسطو، وإما أن المتنبي قد درس أرسطو وفلسفة اليونان فهضم ما درس ومثله ونظمه فأرسله شعراً حكيماً على دنيا العرب.

وفيما يرويه عن هذا الموضوع قوله: «إن إسعاف النشاشيبي» وهو أحد علماء اللغة في عصرنا قد قال في احتفال أقيم لتنصيب أحمد شوقي أميراً على شعراء العرب: الشعر ثلاثة: الأحمدون؛ أحمد المتنبي، وأحمد المعري، وأحمد شوقي. قال: وعقّبت عليه، كيف نسي أحمد الرابع ابن زيدون.

ويبقى أن نعرف أن هؤلاء الأربعة ضربوا في كل فن من فنون الشعر، وصالوا وجالوا في ميدانه وأقاموا صرحاً شامخاً بقصائدهم.



كيف لا وأبو العلاء المعري هو أحدهم وهو الذي لزم في الشعر ما لا يلزم في القافية وهو الذي قال: أنا الأعمى الذي يشير إليه المتنبي في قوله:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

أنام ملئ جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

أما ابن زيدون فقد طرب لقول المتنبي فضمنه في إحدى قصائده وذلك بقوله:

قد قال شاعر كندة فيما مضى
بيتاً على مر الليالي يعلم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وأما أبو العلاء المعري فقد قال:

المرء كالنار تبدو عند مسقطها
صغيرة ثم تخبو حين تحتدم

والناس بالناس من حضر وبادية
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

أما شوقي فيقول:

من الزيادة في البلوى وإن عظمت
أن يعلم الشامتون اليوم ما علموا

كل الجراح بآلام فما لمست
يد العدو فثم الجرح والألم

الرسالة الموضحة

في الموضوع الذي تقدم تحت عنوان: «أنصار المتنبي في القرن الخامس عشر الهجري» كلام فيه تخطئة لأبي علي محمد بن الحسين الحاتمي، في نقده شعر المتنبي بحضرته. فمحمد حسن زيدان وكامل الكيلاني أنحيا باللائمة على الحاتمي حينما نقد شعر المتنبي، مما يجعل المرء يشك في أنهما لم يقرآ «الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره» للحاتمي.

أو كأني بهما قرآها ولم يعترفا بما فيها من اعتراضات قائمة على أدلة قاطعة ساقها الحاتمي على مسامع المتنبي، ونقض بها أبياتاً كثيرة كان المتنبي قد ضمنها قصائده، مما جعل المتنبي يتصاغر أمام الحاتمي بعد أن تاه عليه بكل كبرياء عند أول لقاء ضمه به.

ولهذا فإنه من الواجب علينا أن نعترف بجهود الحاتمي التي أيقظت الحس في المتنبي وألقت في نفسه الحذر من السطو على خزائن الأشعار، ونهب ما فيها من جميل الأبيات لا أن نقلل من قيمة نقده له.

والقارئ للرسالة الموضحة يدرك أن الحاتمي نبه المتنبي إلى أشياء كثيرة، بل قال له بصريح العبارة: هذا أخذته عن فلان، وهذا سرقته من فلان، وذاك ليس لك فيه أي فضل فقد سبقك إليه فلان، وهذا لا يحسن بك قوله.

ولم يبد المتنبي على هذا القول أي اعتراض، بل استسلم وأبدى في بعض الحالات اعتذاراً يوحي بحقيقة السرقة أو عدم المقدرة.



قال الحاتمي وهو يخاطب المتنبي: وقلت في قصيدة لك هذا البيت:

طلب الإمارة في الثغور ونشؤه
ما بين كرخايا إلى كَلْوَاذا

فمن أين لك هذه اللغة في «كلواذا؟» ما أحسبك أخذتها إلا عن الملاحين، وإنك أخطأت فيها خطأ تعثرت فيه ضالاً عن وجه الصواب. قال المتنبي: ولِمَ؟ قال الحاتمي: لأن الصواب ـ كلواذا ـ بكسر الكاف، وإسكان اللام، وإسقاط الياء.

قال المتنبي: وما كلواذا؟.

قال الحاتمي: تابوت التورات بها سميت المدينة. قال المتنبي: وما الدليل على ذلك؟.

قال: قول الراجز:

كأن أصوات الغبيط الشاذي
زبر مهاريق على كلواذ

والكلواذ: تابوت توراة موسى، وحُكِي في بعض الروايات أنه كان مدفوناً بهذا الموضع، فمن أجله سميت كلواذا.

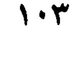
وأطرق المتنبي لا يحير جواباً، ثم قال: لم يسبق إلى علم هذا.

وقولك مقبول والفائدة غير مكفورة.

أما قصيدة المتنبي التي منها هذا البيت الذي أثار ذلك الجدل الذي انتصر فيه الحاتمي، فمنها قوله مادحاً مساور بن محمد الرومي:

أمساور أم قرن شمس هذا
أم ليث غاب يقدم الأستاذا

شم ما انتضيت فقد تركت ذبابة
قطعا وقد ترك العباد جذاذا





لـمـا رأوك رأوا أبـاك مـحـمـداً
في جـوشـن وأخـا أبـيـك مـعـاذا

أعجلت ألسنهم بضرب رقابهم
عـن قـولـهـم لا فـارس إلا ذا

غر طـلـعت عـليه طـلـعة عارض
مـطـر الـمـنـايـا وابـلاً ورذاذا

مـتـعـوداً لـبـس الـدروع يـخـالـهـا
فـي الـبـرد خـزاً والـهـواجـر لاذا

اللاذ: ثوب رقيق من الكتان.

ooooo

حوادث سببها براءة الطفولة!!

ومن عادة الأطفال أن يكونوا فضوليين، فتراهم يحرصون على كشف غطاء كل إناء بدافع حب الاطلاع على كل مخبأ عنهم.

وربما أدى بهم فضولهم وحبهم لمعرفة كل شيء إلى تخريب ما كان مغلفاً بعد تمزيق غلافه ونثر كل مرتب ومصفوف.

بل ربما انتهى بهم فضولهم إلى تحطيم كل ما يتعسر عليهم فتحه ورؤية ما بداخله.

وحب الاستطلاع لدى الأطفال أو معظمهم ربما ألحق بأهليهم أضراراً وخسائر مادية جسيمة، يتمثل أقلها شأناً في تحطيم الساعات ليروا سر ما يحرك عقاربها، وذلك فضلاً عن تفكيك لعبهم طمعاً في معرفة الأسباب التي تجعلها تتحرك ذاتياً أمامهم.

وحينما يكون حديث مجالس الآباء عن تصرفات الأطفال وما فيها من غريب وعجيب تسمع من عجيب أمرهم ما يدهشك.

إذ فيه ما يضحك وما يبكي، ولربما سمعت حوادث قتل بالسلاح يحدث عن طريق التقليد لما يشاهدونه في المرناة «التلفزيون» ولربما سمعت مغامرات منها: القفز من السطوح تقليداً لمن يحدث فيه الفراغ الروحي مبدأ ـ الخطر مهنتي ـ. ولربما سمعت حوادث موت مفاجئ بسبب تناول أدوية تكون في متناول أيديهم، بل ربما احتسوا السم الناقع، وأحرقوا أنفسهم بالنار، ولربما سمعت أكبر من ذلك.

وذلك كأن يذبح أحدهم الآخر بالسكين تقليداً للجزار. وكل هذه



الأشياء تأتي أو يجترها الطفل لنفسه بسبب الفضول الذي عادة ما يكون ملازماً للطفل قبل أن تدخل به السن التقدمية في مرحلة الإدراك والتمييز.

والشاعر طانيوس عبده يذكر شيئاً بسيطاً مما حدث من فضول ابنته، فقد أشار في إحدى قصائده إلى أن ابنته قد كسرت دواته وصبت حبرها على الأرض، وكان كسرها لها أنها كانت تظن أنها زجاجة حلوى.

يقول في ثنايا تلك القصيدة أنه نصح ابنته الصغيرة فقال:

يا بنت قد ساء طفل
على العناد تربى

ففسرت البنت كلمة «تربى» بـ«المربي» الذي يعمل بالسكر. وذلك بقوله:

فاستضحكت فرحاً إذ
ظنت أقول «المربى»

وكانت عندي دواة
كم فرجت لي كربا

وسودت لي خطاً
وبيضت لي قلبا

توهمتها إناء الحلو
ى فجاءته وثبا

وهاجمتها تريد الحلو
ى غلاباً غصبا

ومنها قوله:

فكان حظ دواتي
والحبر كسراً وصبا

وارحمتا لدواتي
وقد سباها الأحبا

ابن دريد و(إن) الشرطية

ابن دريد هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ وهو شاعر مبدع له باع طويل في علم اللغة. وقد اشتهر بالمقصورة التي عرف بها وارتبطت باسمه: مقصورة ابن دريد.

والمتصفح لديوانه يستطيع أن يعد ابن دريد من شعراء الحكمة، وأن يضمه إلى قائمة الذين أتوا بضروب مختلفة من الشعر بما فيها: الغزل والفخر.

وإلى جانب مقصورته وقصيدته المربعة التي نهج في بنائها نهجاً عجيباً وغريباً، إذ جعل كل أربعة أبيات منها تبدأ بحرف من حروف الهجاء وتنتهي به، بدءاً بالألف وانتهاء بالياء.

نجد له قصائد مشتملة على كلمات تقصر وتمد معناها واحد من العكس من ذلك ويكون معناها مختلفاً.

وله قصائد فيما يذكر من الأعضاء، ولا يؤنث والعكس من ذلك. وما يذكّر ويؤنث معاً.

وهذه قصائد تعد تعليمية منهجية.

أقول: إلى جانب هذا كله نجد قصيدة طويلة استرسل فيها حيث طاب له الإنشاء في إبداء رأيه في الناس. وقد نهج منهجاً مثيراً إذ بنى أبياتها على أسلوب شرطي عدا البيتين اللذين وردا في مقدمتها، والبيتين اللذين ختمها بهما.

أما بقية الأبيات التي تبلغ نحواً من اثنين وعشرين بيتاً، فقد صدّر



كل بيت بـ«إن» الشرطية. وقد تفنن في اختيار فعل الشرط وأجاد في صنع جوابه، فمما قاله في تلك القصيدة قوله:

وإن عـايـنـوا حـبـراً أديـبـاً مـهـذبـاً
حـبـيـبـاً يـقـولـوا إنـه لـمـخـاتـل

وإن كـان ذا ذهـن رمـوه بـبـدعـة
وسـمـوه زنـديـقـاً وفـيـه يـجـادل

وإن كـان ذا ديـن يـسـمـوه نـعـجـة
ولـيـس لـه عـقـل ولا فـيـه طـائـل

وإن كان ذا صمت يقولون صورة
مـمـثـلـة بـالـعـي بـل هـو جـاهـل

وإن كـان ذا أصـل يـقـولـون إنـمـا
يـفـاخـر بـالـموتـى ومـا هـو زائـل

وإن كـان ذا مـال يـقـولـون مـالـه
من السحت قد أربى وبئس المآكل

وإن كـان ذا فـقـر فـقـد ذل بـيـنـهـم
حـقـيـراً مـهـيـنـاً تـزدريـه الأراذل

وإن يـكـتـسـب مـالاً يقـولـوا بـهـيـمـة
أتـاهـا مـن الـمـقـدور حـظ ونـائـل

○ ○ ○ ○ ○

محاورة طريفة

ومن طريف ما رواه علي بن ظافر الأزدي في كتابه «بدائع البدائه» أن معلى بن هبيرة كان يحب أن يطرح حماداً الراوية في لسان بعض الشعراء، فقال له يوماً بحضرة يحيى بن زياد: أتقول لأبي عطاء السندي، قل: زج، وجراد، ومسجد بني شيطان؟.

وكان أبو عطاء فيه لكنه سندية يجعل فيها الجيم زاياً، والشين سيناً، والطاء والضاد ذالاً، والعين همزة، والحاء هاء.

قال حماد: فقلت: ما تجعل لي على ذلك؟ قال: بغلتي بسرجها ولجامها.

قلت: وعدلها على يد يحيى بن زياد. ففعل وأخذت عليه بالوفاء موثقاً.

وجاء أبو عطاء فجلس إلينا وقال: مرحباً حيّاكم الله. فرحَّبنا به. فقلت له: يا أبا عطاء طرح علينا رجل أبياتاً فيها لغز، ولست أقدر على إجابته ففرج عني فقال: هات. فقلت:

أبن لي إن سئلت أبا عطاء
يقيناً كيف علمك بالمعاني

فقال مسرعاً:

خبير آلُم فاسأل تزدني
بها دبا وآيات المثاني[1]

(١) آلم: أي عالم، وتزدني: أي تجدني، ودباً: أي طبا.

فقلت:

فما اسم حديدة في رأس رمح
دوين الكعب ليست بالسنان؟

فقال:

هو الزز الذي إن بات ضيفاً
لقلبك لم يزل لك أولتان[1]

فقلت: فرج الله عنك تعني الزج. ثم قلت:

فما صفراء تدعى أم عوف
كأن رجيلتيها منجلان

فقال:

أردت زرادة وأزن زناً
بأنك ما قصدت سوى لساني

فقلت: فرج الله عنك وأطال بقاءك تريد «جرادة» و«أظن ظناً». ثم قلت:

أتعرف مسجداً لبني تميم
فويق الميل دون بني أبان؟

فقال:

بنو سيطان دون بني أبان
كقرب أبيك من أبد المدان[2]

قال حماد: ورأيت عينيه قد احمرتًا وعرفت الغضب في وجهه

(١) أولتان: أي عولتان.

(٢) أبد المدان: أي عبد المدان.

فتخوفته. فقلت: يا أبا عطاء هذا مقام المستجير بك، ولك النصف مما أخذت.

قال: فاصدقني. فأخبرته الخبر فقال: أولى لك، قد سلمت وسلم لك جعلك وانقلب يهجو معلى بن هبيرة هجاء فاحشاً.

○○○○○

السخرية في الشعر

قلّ أن تجد رجلاً يقول الناس جميعاً عنه: إنه سوي الخلق - بفتح الخاء وسكون اللام - أي ليس فيه عيب خلقي. والذي يقرأ كتب التراث يجد أن كثيراً من الكنى والألقاب قد لازمت كثيراً من الناس بسبب ما بهم من عيوب خلقية - بفتح الخاء وسكون اللام -، فهم يقولون: ذو الأصبع. ويقولون: الأصلع. ويقولون: الألثغ. ويقولون: ذو الأيدي. ويقولون: ذو الأكتاف. ويقولون: الأشدق. ويقولون: الأحول. ويقولون: الأعور، والجاحظ، والأعشى، والأعمش، والأكوخ، والأعمى. ويقولون: الأعرج، والأحنف، والأفحج، والأفج، والأشرم، والأبرص.

وما إلى ذلك من العاهات والتشوهات التي تكون ظاهرة مميزة للشخص المصاب بها.

وبعض اللّسانيين والشعراء يلجأون عندما يريدون أن يهجوا شخصاً هجاء ليس فيه إقذاع إلى ذكر ما فيه من عيب خلقي - بفتح الخاء وسكون اللام - فيشيرون إلى ذلك إشارة كلها سخرية ومبالغة في وصف ذلك العيب، ويجعلون منها ما يكون كنية له ولقباً يعيَر به.

ولقد اهتم بعض المؤلفين بهذا الموضوع، فألّفوا في أصحاب العاهات والتشوهات الخلقية مؤلفات فيها ذكر أنواع العيوب الخلقية منها على سبيل المثال: كتاب الجاحظ الذي ألفه في العوران، والعرجان، والبرصان.

أما الشعراء فلهم مواقف مع أصحاب العاهات والتشوهات. أذكر

منها أن الوزير محمد بن عبد الملك الزيات أعاب عيسى بن زينب بكبر أنفه، فقال في ذلك قصيدة بلغت ١٦ بيتاً ذكر فيها صفة أنف عيسى، وطلب من الله أن يزيد في حجمه ليكون أكبر مما هو وليكون مجرى واسعاً للمخاط:

يا أنف عيسى جزاك الله صالحة
وزادك الله إشراقاً ومتسعا

نعم ولا زلت تجري فيك أودية
من المخاط رواء يطَّردن معا

ويصف أنف عيسى بالقلعة التي لو اعتصم بها كسرى أنوشروان لعصمته:

حصن حصين وعزّ لو تناوله
كسرى الملوك أنوشروان لامتنعا

ويرى الزيات أن أنف عيسى أكبر من جسمه وأضخم من جسده مما جعله يخاطبه:

تركت عيسى فما عندي مخاطبة
له وخاطبت أنفاً طال وارتفعا

عيسى غلام ولكن أنفه رجل
والقرن يحسن منه كل ما صنعا

ويزيد في المبالغة في ذكر صفة أنف عيسى فيقول: إنّ عيسى قد غاب في أنفه:

رأيت أنفاً ولم أعلم بصاحبه
فقلت: من صاحب الأنف الذي طلعا؟

قالوا: فتى غاب فيه. قلت: واعجبي
مـا إن رأى مـثـل ذا راء ولا سـمـعـا

ثم صاح بمن سألهم طالباً منهم أن يخرجوا عيسى من أنفه، فأعلنوا عن عجزهم وعدم مقدرتهم على ذلك:

يـا ويـلـكـم أخرجـوه!! قـال نـاطـقـهـم
هيهات!! ما إن نرى في نيله طمعا

○ ○ ○ ○ ○

حديث مع العصفور

من الشعراء من يعشقون محادثة الحيوانات ومناجاة الطيور، ويأنسون بالبوح لها عن عدم ارتياحهم لما هم عليه من حال، ويفصحون لها وكأنها تدرك شكواهم عن عدم رضائهم عن الحياة التي يمارسونها والحالة التي يعيشونها. فتراهم يتحدثون إلى تلك المخلوقات عن كل ما يخالج ضمائرهم من نفور أوجده في نفوسهم سوء التعامل الذي يلقونه من بني جلدتهم.

ولعل سر عشقهم لمخاطبة الحيوانات والطير يرجع إلى أمرين:

الأول منهما: محاولة إيقاظ روح الإنسانية الحقة فيمن يتجردون في تعاملهم من كل خلق إنساني، فلا يقيمون لبني جنسهم وزناً بل ربما سلكوا في التعامل معهم شريعة الغاب.

أما الأمر الثاني: فإنهم يحاولون إظهار اغتباطهم من بساطة حياة الحيوانات، وخاصة منها الطير التي تقضي حياتها في سعادة مستمرة، وذلك برواحها وغدوها في مرح وسرور. ترشف من الماء وتغرد فوق الأغصان ثم تعود مع شفق الغروب إلى أوكارها لا تحمل هماً ولا حقداً ولا كراهية.

وأمام هذه الصورة من بساطة الحياة لدى الطير نجد أحمد الصافي النجفي يخاطب عصفوراً بلهجة المغتبط منه ومن نظام حياته، وذلك في قصيدة له في ديوانه «الشلال» عنوانها: «العصفور»، منها قوله ـ وهو مطلعها ـ:

تغنى أيها العصفور صبحاً
فقل لي ما لنفسي لا تغني

وبعده بأبيات يقول:

كلانا أيها العصفور حر
ولكن عشت من دهري بسجن

ومنها قوله:

كلانا شاعر لكن صحبي
حوت من دون صحبك كل ضغن

وليس لكم دعايات ببطل
تحسن أو تزيف كل لحن

وتحيى بين جنسك غير أني
أعيش بغير جنسي عيش غبن

وجنسك ليس فيه غير جنس
وكم في الإنس من وحش وجن

وكم لك إذ تغني من مجيب
وكم قد ضاع بين القوم فني

لقد غنيت ثم سكت يأساً
لأني كنت في صم أغني

ooooo

المغيلي
يتلقى رداً منطقياً من السيوطي

أورد برهان الدين إبراهيم في كتابه «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» ترجمة لمحمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، فأطراه إطراءاً مستفيضاً استقصى فيه: علمه، وأدبه، وذكاءه، ومؤلفاته، وسيرته، ومعاداته ليهود، وسعيه لقتلهم وهدم كنائسهم، ومطاردتهم.

وهذه صفات حميدة وأفعال شريفة من المغيلي، لكن برهان الدين ذكر أنه وقع بين المغيلي وبين جلال الدين السيوطي مراسلة في علم المنطق، فكان عليه مأخذ فيما كتبه للسيوطي من شعر تجاوز فيه برأيه ما لا يقبله منطق أي مسلم صادق الإسلام. من ذلك قوله:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله
وكل حديث حكمه حكم أصله

وقوله:

هل المنطق المعنى إلا عبارة
عن الحق أو تحقيقه حين جهله
خذ الحق من كفور ولا تقم
دليلاً على شخص بمذهب مثله

وقوله:

عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن
به لا بهم إذ هم هداة لأجله

فأجابه السيوطي ـ أثابه الله ـ إجابة شافية وكافية لمن أثَّر فيه ذلك المنطق البعيد عن الصواب، فأروى السيوطي بإجابته غليل نفس كل صاحب منطق معتدل. ومما جاء في تلك الإجابة قوله:

عجبت لنظم ما سمعت بمثله
أتاني من حبر أقر بنبله

وقوله:

وقال فيه فيما يقرر رأيه
مقالاً عجيباً نائياً عن محله

ودع عنك أبداه كفور وبعد ذا
خذ الحق حتى من كفور بختله

وقد جاءت الأثار في ذم من حوى
علوم يهود أو نصارى لأجله

وما قبل هذه الأبيات وما بعدها موجود في المرجع الذي ذكرته آنفاً، وعلى الراغب فى الاطلاع على جملة ما قاله المغيلي والسيوطي الرجوع إليه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

○○○○○

وحتى م...؟!

قال الشاعر حنابك الأسعد ابن أبي صعب؛ قصيدة بلغ بها نحواً من مائة وواحد وأربعين بيتاً. وقد كان له فيها نظرات فاحصة ووقفات كلها تدبر في شؤون الحياة وما حوله من الأشياء التي لها صلة بإثارة عامل التأمل والتدبر.

وقد خاطب ابن أبي صعب في قصيدته آنفة الذكر الإنسان بوجه عام مخاطبة فيها لهجة تذمر من بعض السلوكيات التي تنحط بالإنسان عن مفهوم الطموحات التي يجب أن تكون الهدف الذي يسعى إليه، والغاية التي ينشدها.

والشاعر ابن أبي صعب في عموم أشعاره نراه ميّالاً لرصد الحكمة بوجه عام، وهو بالإضافة إلى ذلك يقدم النصح في أسلوب متميز قل أن تجد له نظيراً لدى الشعراء. فهو إذا ما استغرب شيئاً أطال الوقوف عنده حتى يستجلي حقيقته.

وإذا ما أظهر استنكاره لفعل راح يعدد الأسباب التي حملته على ذلك الاستنكار، ويعرض الحلول ويصف البديل لكل أمر لا يرغب في ظهوره وتفشيه في بني قومه.

ومن المواقف التي أشرت إليها واشتملت عليها قصيدته الآنفة الذكر والتي استهلها بقوله:

رويـدك سـار فـي ديـاجـي الـدجـنـة

تـجـوب مـفـازات بـمـلء الأعـنـة



ما يستدل على إطالة وقوفه عندما يستغرب أمراً. فها هو ذا يستفهم بـ «حتى م!!» ويسترسل في ذلك الاستفهام الذي صدّر به عدة أبيات متواليات استرسالاً يدل على حرصه على توجيه بني قومه إلى الطريق الأمثل. يقول في تلك الأبيات:

وحتى م ذا المسرى وتجهد في السرى
عمياً وفي ذا السير فقد المسرة

وحتى م لا تخشى الإله وترعوي
فهل إن في الدنيا خلوداً لطينة

وحتى م هذا الوهم غير ملاحظ
مناهي جبار شديد العقوبة

وحتى م في هذا الغرور مولعاً
بأوهام أحلام بهذي الغرورة

وحتى م ياذا الجهل لم تصح ساعة
وتمرح مثل الطفل في عين غفلة

وحتى م لا تصغي لأنذار منذر
ولا تتقي أخطار خطو الخطية

وحتى م لا ترضى بخلع خلاعة
لعلك لا تصمى بسهم الخديعة

○○○○○

اغتنام أيام الشباب والفتوة!!

والإنسان الذي يستشعر دائماً وأبداً ما سيؤول إليه بعد انتهاء ربيع عمره، هو ذلك الذي يعد العدة ويتزود بالزاد الذي يناسب خريف عمره.

وبمعنى آخر هو ذلك الشخص الذي يستغل قواه البدنية والفكرية ليدخر من طاقته الإنتاجية مالاً وفيراً يرتاح إليه عندما تخور وتضعف قواه بصفة عامة؛ لأن استغلال القوة البدنية في مجال كسب المادة التي تدر عليه الربح عند كبره وضعفه، هو من أهم أنواع الادخار الذي تستثمر فوائده بعد تصرم ربيع العمر.

وكذلك استغلال النظر في مجال القراءة والاطلاع على ثقافات العالم، والبحث في العلوم النافعة، هو الذي يكسب المرء ما يتحلى به عندما يجدب البصر في خريف العمر وتتعذر عليه القراءة والاطلاع بسبب ذلك الإجداب أو بفقدانه.

والحث على مثل هذه الاستعدادات في وقت مبكر من سني العمر لم يغفل عنه الشعراء؛ بل نبهوا إليه، وطالبوا الناس بمضاعفة الجهد في كل عمل يحقق لهم كسباً مدخراً.

وللشاعرة الدكتورة إخلاص عمارة وقفة مع هذا الموضوع الحيوي الذي يرتبط بمصلحة الإنسان مادياً ومعنوياً، ويمتد ارتباطه بتلك المصلحة إلى سن الشيخوخة وآخر سنوات العمر. ووقفة الدكتورة إخلاص هذه تتمثل في البوح عن استعدادها المبكر لجمع زاد آخر العمر، وذلك بقولها من قصيدة لها:



سأبصر أكثر ما أستطيع
وأملأ عيني من روضتي

فإني أخاف زماناً سيأتي
به لا أرى موضع الخطوة

سأقرأ كل كتاب أراه
من الشعر كان أو القصة

غداً تتساوى جميع الحروف
وأعجز عن رؤية الكلمة

أدقق دهراً بلون الزهور
عساها تذوب على مقلتي

فإذا حرمت غداً سحرها
وصار البياض كما الحمرة

تذكرت ما كان من أمسنا
تعوض عن واقعي فكرتي

سأسرع في الخطو أعدو بدربي
غداً ألمس الأرض في خشية

○○○○○

مداعبة بين الشاعرين

ابن لنكك والخبز أرزي

ذكر ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» نقلاً عما جاء في «تاريخ بغداد» للخطيب، وفيه أن أبا محمد عبد الله الأكفاني البصري، قال: خرجت مع عمي أبي عبد الله الأكفاني الشاعر، وأبي الحسن ابن لنكك، وأبي عبد الله المفجع، وأبي الحسن السباك في بطالة عيد، وأنا يومئذ صبي أصحبهم فمشوا حتى انتهوا إلى نصر بن أحمد الخبز أرزي، وهو جالس يخبز على طابقه. فجلست الجماعة عنده يهنئونه بالعيد ويتعرفون خبره، وهو يوقد السعف تحت الطابق، فزاد في الوقود فدخنهم، فنهضت الجماعة عندما تزايد الدخان. فقال نصر بن أحمد لأبي الحسين ابن لنكك: متى أراك يا أبا الحسين؟ فقال له أبو الحسين: إذا اتسخت ثيابي. وكانت ثيابه يومئذ جدداً على أنقى ما يكون من البياض للتجمل بها في العيد، فمشينا في سكة بني سمرة حتى انتهينا إلى دار أبي أحمد ابن المثنى فجلس أبو الحسين ابن لنكك وقال: يا أصحابنا إن نصراً لا يخلي هذا المجلس الذي مضى لنا معه من شيء يقوله فيه. ويجب أن نبدأه قبل أن يبدأنا. واستدعى دواة وكتب:

لنصر في فؤادي فرط حب
أنيف به على كل الصحاب

أتيناه فبخرنا بخوراً
من السعف المدخن للثياب



فقمت مبادراً وظننت نصراً
أراد بذاك طردي أو ذهابي

فقال متى أراك أبا حسين؟
فقلت له: إذا اتسخت ثيابي

وأنفذ الأبيات إلى نصر بن أحمد الخبز أرزي، فأملى جوابها فقرأناه فإذا هو قد أجاب:

منحت أبا حسين صميم ودي
فداعبني بألفاظ عذاب

أتى وثيابه كقتير شيب
فعدن له كريعان الشباب

ظننت جلوسه عندي لعرس
فجدت له بتمسيك الثياب

فقلت: متى أراك أبا حسين
فجاوبني: إذا اتسخت ثيابي

○ ○ ○ ○ ○

طوال الأجسام

ذكر المبرد في كتابه «الكامل» أنه يقال: إن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كان إلى منكب عبد الله، وكان عبد الله إلى منكب العباس، وكان العباس إلى منكب عبد المطلب. ونسب إلى التوزي: أن علي بن عبد الله طاف بالبيت وهناك عجوز قديمة وعليّ قد فرع الناس، كأنه راكب والناس مشاة. فقالت: من هذا الذي فرع الناس؟ فقيل: علي بن عبد الله بن العباس. فقالت: لا إله إلا الله، إن الناس ليرذلون! عهدي بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض.

الفسطاط: ضرب من الأبنية.

ونختار من ما يدور في فلك هذه الحكاية من أقوال الشعراء. فقد نسب إلى أعرابي من بني سعد قوله:

ولما التقى الصفان واختلف القنا
نهالاً وأسباب المنايا نهالها

تبين لي أن القماءة ذلة
وأن أشداء الرجال طوالها

دعوا: يا لسعد وانتمينا لطئ
أسود الشرى إقدامها ونزالها

وخلاف هذا يقول أحدهم:

ترى الفتيان كالنخل
وما يدريك ما الدخل



ووجدت هذه الأبيات في الشوادر لابن خميس غير منسوبة لأحد:

وإلا يكن عظمي طويلاً فإنني
له بالخصال الصالحات وصول

ولا خير في حسن الجسوم وطولها
إذا لم تزن حسن الجسوم عقول

إذا كنت في القوم الطوال أصبتهم
بعارفة حتى يقال طويل

وكم قد رأينا من فروع كثيرة
تموت إذا لم يُحْيِهن أصول

○○○○○

الإعابة بالقصر

تمتزج أحياناً المداعبة بالجد في كثير من المواضيع. وظاهرة القصر والطول في أجسام الناس تكون عادة ميداناً للمداعبة.

وكثيراً ما نسمع أنه بتوغل المتداعبين في هذه الظاهرة يحصل جدال يمضي بهم إلى الدخول في مهاترات كلامية تثير بعض الكلمات النابية، كأن يعيب الطويل القصير ويشبهه بما لا يرضاه أو يبالغ مبالغة فاحشة في ذكر مساوئ القصر مما يحمل القصير على اتخاذ رد يخرج عن آداب المداعبة، ويفضي إلى التشاجر والتنازع، والتشاحن، والتباغض.

ولهذا فإن تجنب المداعبة في مثل ذلك أمر يحفظ على المرء سلامة أدبه وكرامة شخصه.

روى المبرد في كتابه «الكامل» في الأدب عن أبي عثمان المازني قال: كان أعرابي يختلف إلى مغنية لآل سليمان، فأشرفت إليه ذات مرة، فأومت إليه بيدها إيماء عائب له بالقصر. فأنشأ يقول:

يا جعفر يا جعفر يا جعفر
إن أك ربعة فأنت أقصر

أو أك ذا شيب فأنت أكبر
غرك سربال عليك أحمر

ومقفع من الحرير أصفر
وتحت ذاك سوأة لو تذكر



وفي هذا المعنى أكثر الشعراء من القول وأفاضوا. فهذا التهامي يقول:

إن يحتقر صغراً فرب فخم
يبدو ضئيل الشخص للنظار

إن الكواكب في علو محلها
لترى صغاراً وهي غير صغار

ويقول حفني ناصف:

ولا تحقر الأمر القليل فطالما
رأينا قليل الأمر جرّ كثيره

ويقول آخر:

كل الحوادث مبدؤها من الصغر
ومعظم النار من مستصغر الشرر

ويقول الآخر:

لا تحقرن أي صغير يحتقر
فربما أسالت الدما الإبر

○ ○ ○ ○ ○

حتى م...؟!

في موضوع تقدم من هذا الجزء وتحت عنوان «وحتى م...؟!!» استعرضت أبياتاً للشاعر حنابك الأسعد ابن أبي صعب، وذكرت شيئاً من مسلكه الشعري وميله إلى اقتناص الحكمة وغير ذلك مما رأيته خلال قراءتي لديوانه مطبوعاً عليه.

وها أنذا أجده قد سار على نفس النمط في تصدير بعض الأبيات بالاستفهام بـ «حتى م...؟»، ولكن في قصيدة أخرى مطلعها:

يا خائضاً بحر جهل أنت جاهله
وراقيـاً مـتـن لـهـو كـلَّ عـامـلـه

وقوامها ثلاثة وأربعين بيتاً. وقد مضى فيها - وأعني بذلك القصيدة - مضيّ الواعظ، والمرشد، والمذكر، بل إنه جعل من نفسه منبهاً من غرور الدنيا، ومنذراً النفس من مغبة الغفلة، وحاضاً على الاستباق إلى التوبة والتماس أسباب النجاة ما دام في الأمر متسعاً والإنسان يملك أسبابها في الحياة.

وهاك قارئي العزيز الأبيات المصدرة بـ «حتى م...؟» ففيها ما يعطيك صورة واضحة عن جو القصيدة بصفة عامة:

حتى م تخطو بمضمار البواري على
متن الغرور الذي انحلت مفاصله

حـتـى م تـلـهـج في إفـك تـأمـلـه
صـدقاً ولا صـدق فـيـمـا أنـت آمـلـه





حتى م تفرحك الأشياء رؤيتها
وأنت للشبح الفاني تغازله

حتى م تعتز في علو له وهد
يوماً تنكسه تعلو آسافله

حتى م تفخر في المثوى ومنزلة
ولم تذكر برمس أنت نازله

حتى م تخدعك الدنيا وقد شهدت
عيناك ترحال من غابت رواحله

حتى م تخطر في تيه العماية لم
تنظر زماناً وما أفنت أوائله

OOOOO

القصيدة

لعل أحداً من الناس لا يخالفني الرأي إذا ما قلت: إن القصيدة في تكوينها ووحدتها وترابط أجزائها وانديإح دائرتها حول المعنى الذي أشيدت من أجله، وعلى ركيزته قامت تُشَكّل في هيكلها ملفاً متكاملاً للحالة التي تعالجها بأي وجه من الوجوه. لكنه يبقى أن أقول: إن هناك احتمالاً بأن يكون بداخل هذا الملف أوراقاً مزورة، وذلك قياساً على ما يقول بعض الشعراء من مبالغات تخرج عن واقع الحالة التي يعالجها. كيف لا ونحن نقرأ لكثير من الشعراء مدحاً لأناس هم أقل مما مدحوا به، ونقرأ ذماً وهجاءً بل شتماً لأناسٍ هم أسمى وأرفع بل أعلى قدراً. وأنزهه عرضاً، وأنقى سريرة مما وصفوا به من سب وذم كان عماده هوى في نفس الشاعر وعدم تجرد من الحقد والحمق والحسد.

والذي له علاقة بالشعراء والاطلاع واسع يعلم أن لكل شاعر من الشعراء إلا ما قلّ منهم ثلاث قصائد:

قصيدة جميلة ترفل في أثواب الواقع، وتتميز بحسن العبارة وسلامة الاتجاه وإصابة الهدف.

وقصيدة مصبوغة بالرياء ومشطونة بكلاليب التعسف ليس للصدق فيها موضع ولا للحقيقة فيها مكان.

وقصيدة تشكل حزمة من الخواطر فيها إلى جانب الحكمة ما يثير النقمة.

ومن الشعراء الواقعيين من لا تكون لديه إلا على الوجه الأول



الذي أسلفت ذكره.

والشاعر السعودي عبد الرحمن صالح العشماوي يعتز باستمساكه لهذا النوع من القصائد. حيث وصف قصيدته، في قصيدة طويلة عنوانها: «القصيدة» بقوله منها:

أتتني بأثواب الأصالة ترفل
وفي عينها سحر يقول ويفعل

ومنها:

ومن تلكم الحسناء يقصر عندها
طويل ويسخو عندها المتبخل

سأخبركم لا تسألوني فإنها
قصيدة شعر وجهها يتهلل

تطير ولكن ما لها في مدارها
جناح إذا طارت به تتجول

تسير ولكن ما لها في مسارها
إذا ما مشت رجل بها تتنقل

لها رقة في وصف إحساس شاعر
وحين تنادي للمعالي يتجلجل

ويجرحها دمع اليتيم وتنتشي
إذا ما شدا في زرقة الفجر بلبل

أصالتها لا تستذل لغاشم
ولا يحتويها مدع أو مضلل

○ ○ ○ ○ ○

العلم والمعلم

وإذا كان للحياة قمة، ومنتهى سمو يحاول الإنسان الوصول إليه، فإن العلم هو منتهى ذلك السمو، وهو القمة العليا لصرح الحياة بصفة عامة.

والذي يسمو إليه ويبلغه ينال به مرتبة الشرف، ويطل من عليائه على العالم إطلالة مفعمة بالفخر والاعتزاز.

والعلم بمفهومه ومادته، وواقعه، وسلطانه يؤنس الإنسان أنسة يبلغ بها درجات التميز على من لم يجد العلم إلى ساحته سبيلاً.

والذي ارتشف من معين العلم فإنه يجد حلاوة لا تعادلها حلاوة، بل إنه يستقوى بمفعول عناصر رحيقه على قوى الجهل، وطيش الحمق، ويحطم به البلاهة والبلادة وسوء الخلق.

والإنسان منذ أن عرف العلم كمادة مكتسبة وهو يسعى جاداً لتطويرها بصفة عامة وتفريعها إلى فروع متخصصة.

وكأنه بذلك يقول لبني جنسه: لا تتهيبوا من العلم وتنظروا إليه كوحدة يصعب هضمها واستيعابها، فقد بسطته وفرعته تفريعاً لا يدع لأي منكم حجة بعدم أخذ فرع أو جانب منه.

ثم إن الإنسان لم يكتفِ بتبسيط العلوم تبسيطاً أدناه وسائل الإيضاح، وأعلاه التطبيقات المعملية لما يتعلق بفروعه العلمية.

والتدريبات المنبرية لما يختص بأكاديميته وعلومه البيانية واللغوية.



والذي تلقى عليه مسؤولية توصيل تلك العلوم مجتمعة أو متفرعة هو إنسان اشتق له اسم من العلم فقيل له: المعلم. وقد صار ذلك الإنسان الذي بلغ به العلم درجة يكون معها معلماً، علماً يشار إليه بالبنان، ويوصف بأوصاف تليق بمكانته وبمجهوداته العظيمة.

ودور الشعراء في وصفه وتمجيده دور بارز يلمسه كل قارئ للشعر. ولعل أحدث ما قيل من قصائد في وصف المعلم قصيدة للشاعر السعودي المعاصر محمد مصطفى البلخي، والتي منها قوله:

يا شمعة ذابت لتهدي ضوءها
لبراعم الأزهار في الأغصان
من شوك صبرك قد عصرت لنا الندى
أكرم بعزمك أيها المتفاني
رمز الفداء على الزمان معلم
يرعى الغراس ولا يكون الجاني
فهو المثال لكل من عرف الندى
لا شك أن نداه نوع ثان

ومنها قوله:

يا هذه الأجيال كوني برة
فهبي المحبة صاحب العرفان
حق على الإنسان إن عز الوفا
ألا تضيع حقوق ذا الإنسان

فهو الذي دحر الظلام بنوره
وشعاعه باق مدى الأزمان

ويختمها بقوله:

لا شك عندي أن في إخلاصه
سر النهوض بسائر الأوطان

○○○○○

كاد المعلم أن يكون رسولاً

لقد أكثر الكتاب والشعراء وكل من تلذذ بطعم العلم، وسما بسموه وارتفع بقدره من وصف العلم وتشبيهه بتشبيهات ملموسة لا يمكن حصرها ولا الوقوف على آخر لها. لكن من أقوالهم في ذلك: هو شمعة تضيء الظلام. وقولهم: إذا كان البناء، يبني ويحكم البناء. فإن المعلم ينشئ ويبني العقول. وقولهم: مثل ما أن الفلاح يستصلح الأرض ويغرس الأشجار ويزرع الزرع ويسقي الحرث، فإن المعلم يعمل على تطوير مدارك تلامذته وتوسيع دائرة معارفهم وتهيئة نفوسهم لاستقبال العلم والمعرفة كفعل ذلك الفلاح.

وهذه التشبيهات والتعريفات وما ماثلها من أوصاف تنطبق عليه في معناها وبلاغتها التي تصور التضحية في سبيل نشر العلم وتعليمه كقولهم: هو شمعة تحترق لتبدد الظلام وتضيء الدرب للآخرين. وقولهم: هو كالغيث الذي يصيب الأرض القاحلة فتهتز وتربو وتنبت أنواع الكلأ..

والشاعر أحمد شوقي قد ضرب المثل القياسي بين الشعراء قاطبة في وصف المعلم ودوره البارز في حياة الأمة وأعطاه حقه من المديح الذي يليق به وبالرسالة التي يؤديها. فكان قوله الأجدر بالإشارة حينما يذكر فضل المعلم، وسمو مكانته، وكان قوله أيضاً أحق بالاستشهاد به عند الكتابة عن المعلم من أي قول آخر. وكيف لا يكون كذلك وهو الذي قد قال قصيدته «العلم والتعليم وواجب المعلم» والتي منها قوله:

قـم لـلـمـعـلـم وفّـه الـتـبـجـيـلا

كـاد الـمـعـلـم أن يـكـون رسـولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي
يبني وينشئ أنفساً وعقولا

سبحانك اللهم خير معلم
علمت بالقلم القرون الأولى

أخرجت هذا العقل من ظلماته
وهديته النور المبين سبيلا

وطبعته بيد المعلم تارة
صدئ الحديد وتارة مصقولا

ومنها قوله:

فهو الذي يبني الطباع قويمة
وهو الذي يبني النفوس عدولا

ويقيم منطق كل أعوج منطق
ويريه رأياً في الأمور أصيلا

وإذا المعلم لم يكن عدلاً مشى
روح العدالة في الشباب ضئيلا

○○○○○

المعلم

والمعلم هو حجر الزاوية ـ كما يقولون ـ في بناء المجتمع، وهو الأساس المتين في صنع الأجيال.

ومتى وجد المعلم التقي النقي الصافي المشرب السليم الركيزة الذي يمتطي الإخلاص ويبذل الجهد في سبيل تنشئة الجيل الجديد خوى وذبل في أمته الجهل، واستيقظ ونما فيها العلم واستنارت بالمعرفة على ضوء صوته المنبه الذي يصف طريق المعالي ويقود القافلة إلى حيث تبلغ أسمى الأهداف وأعلى الرتب.

ولقد وصف المعلم بأوصاف تليق بمقامه وتتفق من حيث مدلولها مع مهنته فقيل: إنه مصباح الحياة، وسراج الديجور. وقيل فيه: كاد المعلم أن يكون رسولاً.

والشعراء ـ لا بل أكثرهم ـ لم يوفِّه حقه، فحقه كبير، وله على أمته فضائل لا تحصى ولا تعد. ولهذا فحقه أن يكرَّم ويشاد بأعماله ويمجد بأفعاله التي يقدمها غذاء للأرواح والتي هي أهم من المادة التي تحرك مشاعر المديح فيهم.

ولعظم مكانة المعلم فيما أراه وجدت نفسي ميّالاً لرصد ما تقع عليه عيني من شعر فيه إشارة إلى فضل المعلم.

والشاعر محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر من أولئك الشعراء القلة الذين أشادوا بدور المعلم في حياة الناس. ففي قصيدة له طويلة رثى بها محمد بك اللواتي ـ المدرس بدار العلوم بمصر ـ يقول:



وما ترك المعلم في بنيه
تراثاً كالتقى والمكرمات

وما خلدت بغير العلم ذكرى
وكان العلم خير الذكريات

ومنها قوله:

إذا مات المعلم في قبيل
ثووا بالجهل في أرض موات

يذل لعز أمته ويفنى
لتبقى في الشعوب الخالدات

ومنها قوله:

هو النور المبين عليه تسري
إلى وضح الفلا في الساريات

وروح تسطع الأرواح منه
على آبائها والأمهات

ومنها قوله:

فتسمع بالمعلم كل ماض
وتدرك بالمعلم كل آتِي

وتبني في العلا أركان مجد
على صنع المعلم مرسيات

○○○○○

أبو العتاهية
يصطحب (من) في إحدى قصائده

الموت أمر محتوم على كل ذي روح مهما طال به الأمد. والإنسان يتحول بعد الموت إلى حفرة في باطن الأرض هي القبر الذي يستقر فيه جثمانه، وهو الجدث الذي يرمس فيه جسده ويبقى فيه رفاتاً إلى أن يأذن الله بالبعث وتعدو كل روح إلى جسدها الذي انتزعها منه مَلَكُ الموت.

والوقوف على المقابر فيه عبرة واعتبار وتذكير وتحفيز للنفس وإيقاظ من الغفلة، وهو مشهد يعيد إلى الذاكرة المآل ويجدد السؤال عمن كانوا معنا بالأمس القريب، ومن كنا نعايشهم ونأنس بهم، وبمخالطتهم والتحدث إليهم.

ولقد أدرك ذوو البصيرة ممن يعظون الناس بالموت ويذكّرونهم بأيام الله أن أقرب شيء لتحريك ساكن هدهدته الغفلة، هو الإشارة إلى القبور التي استقر بها من كان قد بنى القصور وفاخر بالدور فخانته المنية ومرغت خده في التراب بعد أن كان يعطر بأحسن الأطياب.

ولقد أنشأ أبو العتاهية في هذا الموضوع قصيدة طويلة مضى في أبيات منها على نغم هذه العبارة «من كنا، ومن كنا»، وكأنما هو يستفسر من القبور عمن كان يتعامل معهم في الحياة فسبقوه إلى النزول في القبور. يقول:

أأيتها المقابر فيك
من كنا نُنازله

ومن كنا نتاجره
ومن كنا نعامله

ومن كنا نعاشره
ومن كنا نداخله

ومن كنا نشاربه
ومن كنا نؤاكله

ومن كنا نفاخره
ومن كنا نطاوله

ومن كنا نراقبه
ومن كنا نزايله

ومن كنا نكارمه
ومن كنا نجامله

ومن كنا له إلفا
قليلا ما نزايله

○ ○ ○ ○ ○

المكياج
في عصر النابغة الذبياني

قال النابغة الذبياني، واسمه زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب الذبياني:

تـجـلـو بـقـادمـتـي حـمـامـة أيـكـة
بــرداً أســف لــثــاتــه بــالإثـــمــد

وفي هذا البيت ما يدل على أن النساء في عصر النابغة الذبياني كن يستعملن من المواد المركبة ما يحدد معالم الجمال، ويصنع إطاراً جذاباً يزيد من طبيعة الجمال جمالاً لتستكمل الصورة بعدها في عين العاشق، وتأخذ مكانها من نفسه.

وفي شرح أبي أحمد الحسن بن عبد الله العسكري صاحب كتاب «المصون في الأدب» لبيت النابغة ما يدل دلالة واضحة على أن تمكيج الناس في ذلك العصر.

قال العسكري في شرحه: تجلو بشفتيها إذا تكلمت أو ضحكت، وشبه شفتيها بقادمتي حمامة لرقتها. و«أسف لثاته بالإثمد» كانوا يجعلون الكحل في أصول الأسنان ليشرق السواد مع البياض. وكان ذلك مما يستحسنونه ولا سيما إذا كانت اللثة بيضاء غير حمراء. فكرهوا أن تكون اللثة بيضاء كالأسنان فغيروها بذلك.

والبيت المتقدم من قصيدة غزلية طويلة للنابغة الذبياني ذكر فيها الشيء الكثير من مناطق الجمال في سائر الجسم ووصفها وصفاً بليغاً. ومطلع القصيدة:



أمـــن آل مـــيـــة رائـــح أو مـــغـــتـــد
عـــجـــلان ذا زاد وغـــيـــر مـــزود

ومنها قوله:

نـظـرت بـمـقـلـة شـادن مـتـربـب
أحـوى أحـم الـمـقـلـتـيـن مـقـلـد

والـنـظـم في سـلـم يـزيـن نـحـرهـا
ذهـب تـوقـد كـالـشـهـاب الـمـوقـد

ومنها قوله:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
فـتـنـاولـتـه واتـقـتـنـا بـالـيـد

بـمـخـضـب رخـص كـأن بـنـانـه
عـنـم يـكـاد مـن الـلـطـافـة يـعـقـد

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نـظـر الـسـقـيـم إلى وجوه الـعـود

تـجـلـو بـقـادمـتـي حـمـامـة أيـكـة
بـرداً أسـف لـثـاتـه بـالإثـمـد

كـالأقـحـوان غـداة غـب سـمـائـه
جـفـت أعـالـيـه وأسـفـلـه نـدى

○○○○○

كيف يقبل النصح. ومتى يجابه؟؟

ذكر أبو العباس ابن المبرد في كتابه «الكامل» في الأدب: إن مخيس بن أرطأة الأعرجي قد عاب رجلاً من بني حنيفة يقال له: يحيى. عندما سمع أنه يختلف إلى امرأة في قرية من قرى اليمامة يقال لها: بقعاء. وطلب منه أن يتجنب هذا الأمر الذي أعيب من أجله. بقوله:

عرضت نصيحتي يوماً ليحيى
فقال: غششتني والنصح مر

وما بي أن أكون أعيب يحيى
ويحيى طاهر الأثواب بر

ولكن قد أتاني أن يحيى
يقال عليه في بقعاء شر

فقلت له: تجنب كل شيء
يعاب عليك أن الحر حر

وهذا نصح جميل من ابن أرطأة، فلا فيه تجريح، ولا تشهير؛ ولكنه أسلوب يأخذ طريقه إلى التمركز في لب قلب المنصوح. وهو على خلاف ما نراه من بعض النصحاء الذين يظهرون لنا النصح في هذا الزمان دونما تورع عن التشهير أثناء النصح، وكأنهم لا يعلمون أن التشهير ورفع الصوت على المنصوح أمام معارفه أو حتى عامة الناس إنما هو أسلوب منفر يحمل على عدم الاستجابة، بل ربما وصل ببعضهم إلى المعاندة المتمثلة في عدم قبول ذلك النوع من النصح:

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

آفة النصح أن يكون لجاجا
وأذى النصح أن يكون جهارا

ويقول الرقاشي:

ألا ليقل من شاء إنما
يلام الفتى فيما استطاع من الأمر

ويقول آخر:

ولذة ساعة ذهبت وولّت
وأبقت بعدها حسرات دهر

ويقول ابن المخارق:

ويعذر ذو الذنب المقر بذنبه
وليس لمن يفضي على الذنب عاذر

○○○○○

وصف بديهي

الوصف فن من فنون الشعر يختص به بعض الشعراء عن بعضهم الآخر لموهبة مستقلة به ومقدرة تعبيرية متميزة. والشاعر الوصاف يستطيع أن يرسم لوحة شعرية تنطق بما شاهده؛ بل يجسد بعباراته وكلماته كل ما وقعت عليه عينه.

ولربما أدرك بنظراته المتميزة أشياء تخفى على أي مشاهد غيره؛ لأنه يرى أحياناً بعين خياله ما لا يراه غيره.

قال علي بن ظافر الأزدي في كتابه «بدائع البدائه»: ذكر ابن خاقان في كتاب «قلائد العقيان» ما نصه، قال: حضر الأستاذ أبو محمد عبد الله بن السيد البطليوسي عند المأمون ابن ذي النون ببعض متنزهاته في يوم طاب نسيمه، وسرت بالسعود نجومه، والروض قد أجاد وشيه راقمه، والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه، وثم بركة مملوءة؛ كأنها مرآة مجلوة قد اتخذت سباع الطير بشاطئها غاباً، ومجت بها من سائغ الماء لعاباً، لا تزال تقذف الماء ولا تفتر، وتنظم لآلئ الحباب بعدما تنتثر. فأمره بوصف ذلك الموضع الذي تخب إليه ركاب القلوب وتوضع، فقال بديهاً:

يا منظراً إن نظرت بهجته
ذكرني حسن جنة الخلد

تراب مسك وجو عنبرة
وغيم ند وطل ما ورد

والماء كاللازورد قد نظمت
فيه اللآلئ فواغر الأسد



كأنما جائل الحباب به
يلعب في جانبيه بالنرد

تراه يزهو إذ يحل به
مأمون زهو الفتاة بالعقد

تخاله إن بدا به قمراً
تما بدا في مطالع السعد

كأنما ألبست حدائقه
ما حاز من شيمة ومن مجد

كأنما جادها وأمطرها
بوابل من يمينه رغد

ooooo

العزلة والاعتزال

هناك فريق من الكتاب والشعراء وأهل الأدب والفكر يرون أن في اعتزال الناس صلاحاً لحالهم، وصيانة لثقافتهم، واستقامة لأمرهم ومعرفتهم. بل ربما رأوا أن في مخالطتهم للناس ما يؤثر على صفاء نفوسهم، ويعكر صفو تفكيرهم، أو يدخل عليهم الشك فيما يعتقدونه من رأي ويفكرونه فيه من أمر.

واعتزال الناس من هذه الوجهة ربما يجد قبولاً من كثير من الذين يكون لهم فلسفة خاصة في الحياة، ونشاط فردي يعتمد نجاحه على التفكير واسترعاف القلم والتأليف ومع أهمية هذا فإن هناك دواعي أخرى تدعو إلى اعتزال الناس، وهي عدم وجود المماثل في المستوى الثقافي والاجتماعي ونحو ذلك.

وهذا هو ما أشار إليه الشاعر العراقي أحمد الصافي النجفي في إحدى قصائده التي ضمنها ديوانه «الشلال» واستهلها بقوله:

لزمت اعتزالي إذ فقدت المماثلا

وكونت من نفسي لنفسي محافلا

أسجل منها بعض ما أنا سامع

فأصبح فيكم للروائع قائلا

وعاشرت أقواماً فضاعت حقيقتي

وكدت أرى الحق الموضح باطلا

وفي هذه القصيدة التي تبلغ إحدى عشر بيتاً يحاول النجفي إظهار شيء من فوائد العزلة واعتزال الناس، حيث يقول:

تنال الكمال المحض ما عشت مفرداً
وهيهات بين الناس تصبح كاملا

وما دمت فيهم لا تكون مصارحاً
برأي ولكن خادعاً ومجاملا

والنجفي يرى في قصيدته تلك أن على الذي يرفض العزلة، ويرغب في معاشرة الناس أن ينقص من عقله حتى يظنه جهال القوم عاقلاً؛ لأنه لو عاشرهم وتعايش معهم بعقله الحقيقي لعدّوه ناقصاً خاملاً.

ثم يضع الخيار لمن يريد أن يعايش الناس بأن يتحول إلى الجهل أو أن يتجاهل حتى يحيا سعيداً بينهم:

ومن عاشر الأقوام أنقص عقله
ليحسبه الجهال في القوم عاقلا

ولو عاش بين الجاهلين بعقله
لعد لديهم ناقص العقل خاملا

فإن رمت أن تحيا سعيداً مع الورى
فعش جاهلاً في الناس أو متجاهلا

ooooo

لـم...؟

لقد عنوَن الشاعر السعودي يحيى توفيق قصيدة من قصائده بـ «لم»، وتساءل في كثير من أبياتها تساؤلات متوالية يصحبها نوع من اللوم على ركوب أمر صعب وله من البديل ما يمكن من الاستغناء عنه وعدم اللجوء إليه.

ولا أريد أن أتحدث عن شاعرية شاعرنا الكبير يحيى توفيق بوجه عام في هذا الموضوع؛ لأن الحديث عنه كشاعر سعودي ملأ شعره عالمنا العربي يحتاج إلى وقفات طويلة؛ لأنه يلمس في شعره الواقع لمساً ويتحدث عن جوانب الحياة بلغة عليها مسحة البلاغة وفنية الصنعة المعاصرة.

ولكنني سأقصر حديثي هذا على استقراء الفكرة التي تمخضت عنها تلك القصيدة التي أعدها من أهم القصائد التي تعالج كثيراً من المشكلات الاجتماعية. وتنطوي على إشارات توجيهية هادفة.

فأقول: ربما أن بيت الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي الذي يقول فيه:

لِمَ تشتكي وتقول أنك معدم
والأرض ملكك والسما والأنجم

هو ملهمه لإنشاء هذه القصيدة التي تساءل فيها تساؤلات جاءت على نسق ما جاء في بيت أبي ماضي، لكنني أرى أن قصيدة توفيق أجدر بالنظر إليها من تساؤلات إيليا أبو ماضي. والذي قرأ القصيدتين لا أخاله إلا موافقاً لي من حيث جدارة شاعرنا يحيى توفيق وتكيفه مع



اختيار البديل للفعل الذي استغربه، وتساءل عن أسباب ركوبه بـ«لم»، وسوف أمتعك أيها القارئ بأبيات منها وفقاً لخطة سيرى في تأليف هذا الكتاب. والتي ذكرتها في المقدمة، حتى تعذرني من إيراد بقية القصيدة:

لم في ضمير الأرض يشقى مسلم
وأخوه في ظل الرفاهة ينعم

لم يمنح الفذ الذكاء وغيره
يحيا بليداً كالدمى لا يفهم

لم لا نكون جميعنا في صورة
مثلى فلا جنس لجنس يظلم

لم أنفس تختال في ثوب الحرير
وأنفس تعرى ولا تتبرم

لم تطمس الأحقاد طهر نفوسنا
ويموج بالحسد الضمير المعتم

لم لا نحب فتنتهي آلامنا
ونرى الوجود بأعين تتبسم

لم كالجياع على الرذيلة نقدم
وعن الفضيلة قد نشيح ونحجم

ooooo

العيــون

العيون سر من أسرار الجمال الذي أودعه الله في الإنسان. ثم أنها بحكم مركزها من الجسم تمثل واجهة تقع عليها النظرة الأولى. ولهذا فهي في ميدان العشاق هدفاً من الأهداف التي تخضع لأسلوب الوصف وريشة التصوير.

ونحن إذا قرأنا شعر الشعراء الذين طرقوا بكف صادقة باب الغزل، وصالوا وجالوا في ميدانه وجدناهم قد وصفوا العيون، وتغنوا بما فيها من جمال وحسن قد أسر قلوبهم وحرك ألسنتهم بالبوح عما يخالج نفوسهم من رغبة في الاستمتاع بالنظر إلى تلك العيون التي كانوا أسرى لنظراتها، تلك النظرات التي يصفونها بالسهام المصوبة نحو قلوبهم.

والعشاق بصفة عامة سواء الشعراء منهم أو غير الشعراء يترجمون لغة العيون من قاموس العشق، فيجدون حصيلة تعبيرية لها صلة مباشرة ووثيقة بمبادلة الحب ومشاطرة العشق حيناً. وقد يجدون في تحليلهم لمعاني كلماتها الصامتة ما لا تطمئن إليه نفوسهم حيناً آخر. بل ربما فسروا ذلك بأنها نظرات فيها تهديد ووعيد.

ولا أريد هنا الاستشهاد بما قاله الأقدمون عن العيون وما لها من تأثير وجاذبية بل أدع ذلك لموضوع آخر غير هذا لألقي نظرة على قصيدة عنوانها: «إلى عينيك أنتسب» للشاعر العراقي المعاصر طه الهاشمي، والتي أطال فيها النفس فبلغ بها قرابة ثلاثين بيتاً أبدع فيها في وصف العيون وشدة تأثيرها على العاشق الواله... منها قوله:

عيناك بحر به الأمواج تضطرب
وإنني لهما بالعشق أنتسب

كنت الغريب وها إني أرى بهما
بالرمش أماً ولي بالجفن ثم أب

تكاد تفضح ما تخفي وما علمت
أن العيون وشاة ما لها أرب

ومنها قوله:

ورب من قال كيف الحال قلت له
بي ما ترى فعلام الناس ترتقب

فقال قد سمعوا ما كنت تفضحه
وقولك الآن قول باطل كذب

زعمت أن الهوى سر وأنت به
جهراً تكلمت حتى ذاعت الكتب

فقلت إن الذي في القلب ليس له
كتم ونار الهوى في الروح تلتهب

لكنهم لو رأوا عيني فاتنني
رأيتهم وعلى أعقابهم قلبوا

والقصيدة قد نشرت بكاملها في العدد ٩٢١٦، من جريدة «الندوة».

○○○○○

حق اليتيم

اليتيم: هو ذلك الطفل الذي مات والده وهو لا يقدر على الكسب ولا يستطيع أن يعيّش نفسه. وأصبح في وضع يحتاج معه إلى أمرين مهمين: الأول أنه إذا كان أبوه قد ترك له ميراثاً ومالاً فإنه يجب العناية به وحفظه وتثميره له حتى يبلغ. والثاني: أنه إذا لم يترك أبوه له ميراثاً ولا مالاً فإنه يجب مد يد العون له. وجبر خاطره فلايجتمع عليه يتم وفقر. والقرآن الكريم نهى عن قهر اليتيم حتى لا يعيش في ذل اليتم. ولا يفقد يد الحماية الأبوية التي يتمتع بنعيم سلطانها غيره من الأطفال الذين يعيشون في ظل حنان الأبوة.

قال تعالى في سورة الضحى آية ٩: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾، قال الطبري: في ذكره تعالى لنبيه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ﴾ يا محمد ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: فلا تظلمه فتذهب بحقه استضعافاً منك له.

والتلطف باليتيم، وإطعامه أمر قد ندب إليه القرآن الكريم، قال تعالى في سورة البلد الآية ١٤ و١٥ و١٦: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

ومراعاة الحالة النفسية لليتيم أمر واجب على من حوله من الناس. وذلك كإدخال السرور عليه ومساواته بغيره في كل أمر له علاقة مؤثرة على نفسية الطفل. أما إكرامه فقد حضّ عليه القرآن الكريم. قال تعالى في سورة الفجر آية ١٧: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾.

والشعراء يساهمون في تصوير جانب من جوانب حالة اليتيم الذي تقصر عنه أيدي بعض المحسنين وتتركه فريسة لمشاعر اليتم وآلامه.

ولقد جسّد الشاعر العراقي معروف الرصافي مرأى أليماً ومحزناً ليتيم لم يلبس جديداً في يوم العيد كما لبس أولاد الأغنياء في قصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وثمانين بيتاً. منها قوله:

أطل صباح العيد في الشرق يسمع
ضجيجاً به الأفراح تمضي وترجع

صباح به يكسو الغنى وليده
ثياباً لها يبكي اليتيم المضيع

صباح به تغد الحلائل بالحلى
وترفض من عين الأرامل أدمع

ألاليت يوم العيد لا كان إنه
يجدد للمحزون حزناً فيجزع

ومنها يقول في وصف احتفال الأطفال بالعيد ومن بينهم ذلك اليتيم الذي لم تفرحه مباهج العيد:

وقفت أجيل الطرف فيهم فراعني
هناك صبي بينهم مترعرع

عليه دريس يعصر اليتم ردنه
فيقطر فقر من حواشه مدقع

يليح بوجه للكآبة فوقه
غبار به هبت من اليتم زعزع

يرد ابتسام الضاحكين بحسرة
تكاد لها أحشاؤه تتقطع

○○○○○

اليتم... واليتيم

اليتم داء لا يصيب إلا الصبية الصغار. وإذا ما أصابهم، وغفل عنهم من يستطيع تخفيف آلامهم فإنه يمكث في أعماقهم، ويتمكن من نفوسهم فتذوي براعمهم الغضة وتذوب الحسرة في قلوبهم.

والعجيب في أمر اليتم أنه يوجد إحساساً غريباً لدى الصبية الصغار، وهذا الإحساس يظهر أكثر ما يظهر على ملامح اليتيم عندما يرى نظراءه وأقرانه يسيرون جنباً إلى جنب مع آبائهم.

والضمور الذي يخلفه اليتم في نفس اليتيم قد يترك أثراً نفسياً يصاحبه حتى وإن تجاوز السن الذي لا يجوز معه وصفه باليتيم.

ولقد تناولت جانباً من المواقف التي يجب أن يقابل بها اليتيم حتى نخفف عنه وطأة اليتم، وذلك في موضوع تقدم عنوانه: «حق اليتيم» وحيث أن الحديث عن اليتم واليتيم ذو شجون لا تنتهي، فإن العودة إليه مرة ثانية وثالثة ورابعة وأكثر فيها جدة ومعانٍ أخرى.

والشعراء كثيراً ما يكونون سبباً لإثارة كثير من المواضيع الإجتماعية التي يجب أن لا تنسى، وأن تكون هي حديث الناس بين حين وآخر.

ومشكلة اليتم تتجدد في كل لحظة وساعة في كل مجتمع، والتعبير عنها أمر تفرضه الحالة التي تبرز ويكون لها تأثير في نفس الشاعر.

والشاعر علي حسين الفيفي واحد من الشعراء المعاصرين، ومن الذين عرضوا مشكلة اليتم. وصوروا حالة اليتيم التي يجب أن تعالج

بالعطف والحنان في قصيدة مثيرة جداً بلغت نحواً من ثمانية وعشرين بيتاً كلها تنطق بواقع الألم والحزن الذي يعايشه اليتيم الذي فقد حنان الأبوة والأمومة، منها قوله:

أم المصائب قد وافته في الصغر
فالحزن في قلبه وعد إلى الكبر

وجرحه في صميم القلب ليس له
طب وأدمعه تنهال كالمطر

تكاد زفرته تجتث مهجته
وحزنه كاد يدنيه من الخطر

هذا اليتيم وما في أفقه أمل
يلوح غير سحاب الهم والكدر

ومنها قوله:

من يفقد الأم في سن مبكرة
يفقد حناناً تغذاه من الصغر

كأنه فقد الدنيا وبهجتها
أو أنه فاقد للسمع والبصر

يحيا بجسم وأحشاء ممزقة
ومهجة روعتها ضربة القدر

إذا تكلم فالأحزان تخنقه
لا ينطق القول مثل الأمس كالدرر

○ ○ ○ ○ ○

اليتيم في الجاهلية

تجمع الديانات على وجوب العطف على اليتيم ورعايته. ولهذا فإنه لا يشذ مجتمع من مجتمعات الأرض عن تطبيق حق اليتيم والعناية به وبماله ورده إليه عندما تلقى عليه المسؤولية. ويتحقق إدراكه لواقع الحياة ببلوغه السن القانونية التي تنفي عنه الوصاية وتثبت رجولته.

ولو أردنا استعراض نموذج للاستدلال به عل موقف الجاهليين من اليتيم، واستظهار مدى تفاخرهم بالاهتمام بأمره لما شق علينا البحث عن ذلك. إذ أن المجتمع الجاهلي مليء بصور كفالة اليتامى والإحسان إليهم.

فهذا أبو قيس صرمة ابن أبي أنس قيس بن صرمة بن مالك بن عدي بن النجار الذي قيل عنه أنه قد ترهب ولبس المسوح، وفارق الأوثان، واغتسل من الجنابة، واعتزل الحيض من النساء، وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه طامث، ولا جنب.

وقال أعبد ربّ إبراهيم على دين إبراهيم، وكان يعظم الله، ويقول الحق.

أما أشعار أبي قيس فكثيرة غير أن الذي يناسب هذا الموضوع منها ما كان يدعو فيه إلى الابتهال مما يدل على صدق ما قيل عن تنسكه. ففي إحدى قصائده التي تعبق بنهجه الجديد. نجده قد ضمنها وصايا حسنة، منها: الوصية بتقوى الله في ضعاف اليتامى، مشيراً إلى أن لليتيم ولياً غيرهم. فإن لم يحصل له الإحسان منهم فإن وليّه سينتصر



له ـ وهو يشير بذلك إلى الله جل جلاله ـ من تلك القصيدة قوله:

سبّحوا اللّه شرق كل صباح
طلعت شمسه وكل هلال

عالم السر والبيان لدينا
ليس ما قال ربنا بضلال

ومنها قوله:

وله الطير تستريد وتأوي
في وكور من آمنات الجبال

يا بني الأرحام لا تقطعوها
وصلوها قصيرة من طوال

واتقوا اللّه في ضعاف اليتامى
إن مال اليتيم يرعاه وال

واعلموا أن لليتيم ولياً
عالماً يهتدي بغير السؤال

يا بني الأيام لا تأمنوها
واحذروا مكرها ومر الليالي

واجمعوا أمركم على البر والتقوى
وترك الخنا وأخذ الحلال

وقد أسلم وحسن إسلامه لما قدم النبي ﷺ المدينة.

○ ○ ○ ○ ○

أين من كان؟

لقد سجل الكاتب والأديب والفيلسوف والشاعر الذي ملأ الدنيا بعلمه وأدبه وأثرى المكتبة العربية بفيض إنتاجه أيما إثراء الأستاذ عباس محمود العقاد قصيدة رثائية خص بها الأستاذ محمد محمود باشا وأنشدها في الذكرى الثانية بعد انقضاء عام على وفاته، وأثنى عليه ثناء معطراً. حيث استعرض جانباً من أعمال محمد محمود باشا مما قدمه لأمته المصرية من أعمال عدها العقاد جليلة وكبيرة، واعتبرها دَيناً من محمد محمود باشا على أبناء مصر. وقد بلغ العقاد بتلك القصيدة سبعة وثلاثين بيتاً، صدرها بقوله:

جدد العهد بعد عام محمد
تلك ذكرى على المدى تتجدد

وبعده بأبيات أخذ يعدد مآثر محمد محمود باشا ويذكر فضائله وأياديه الجميلة، مشيراً إلى أنه ليس له مثيل في فعله ولا شبيه في أدبه وخلقه وتفضله.

وقد استهل جملة أبيات متوالية بـ «أين من كان» قاصداً بذلك الاستفهام عن صفات محمودة، وخصال حميدة انعدمت أو ذهبت بذهاب صاحبها الذي عرف بها محمد محمود باشا.

يقول العقاد في تلك الأبيات التي صدرها بـ «أين من كان»:

أين من كان رحمة وهو بأس
أين من كان أمّة وهو مفرد



أين من كان للمساكين عوناً
ولـه في ذؤابة المجد مسند

أين من كان منية المتمني
في مغيب من الوداد ومشهد

أين من كلما تقلد أمراً
صان في جيده عرى ما تقلد

أين من كان مرجع القوم فيما
صدع العزم أيدياً فتبدد

أين من كان قولهم فيه شتى
والطوايا في وصفه تتوحد

أين من كان قائداً وهو فيما
نتقيه جندي مصر المجند

وهذه القصيدة بكاملها موجودة في ديوان العقاد «أعاصير مغرب».

○○○○○

منزلة الفقير عند الناس

الفقر ربما يكون شبحاً مخيفاً عندما لا يكون للتغلب عليه سبيلاً. والفقير هو الذي يعرف كيف يعبر عن الفقر ومآسيه وآلامه، لأنه ذاق مسّه وتجرع مرارة فعله، وذاق منه الأمرّين كما يقولون: فهو - وأعني بذلك الفقير - يقاسي بالإضافة إلى خلوّ اليد، إلصاق التهم به.

ووصفه بكل صفة يأباها الغني. قال ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار»: قرأت في كتاب للهند: ليس من خلة يمدح بها الغني إلا ذم بها الفقير فإن كان شجاعاً قيل أهوج. وإن كان وقوراً قيل بليد، وإن كان لسناً قيل مهذار، وإن كان زميتاً قيل عي.

وفي الحديث المرفوع: «أمر الرسول ﷺ الأغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج»[1]. يقول الأصفهاني في كتابه «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء»: وجدت الدنيا والآخرة في شيئين، وخيرهما وشرهما في شيئين: خيرهما: الغنى والتقى، وشرهما: الفقر والفجور.

وقيل: الفقر مجمع العيوب.

ويروى عن الحسن رضي الله عنه أنه إذا لقي المساكين قال: هؤلاء مناديل الخطأ.

---

(١) أورد الحديث ابن ماجه في سننه، وسنده «حدثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عثمان بن عبد الرحمن، ثنا علي بن عروة، عن المقبري عن أبي هريرة قال: «أمر...» الحديث. قال ابن حبان: علي بن عرزة يضع الحديث وعثمان بن عبد الرحمن مجهول. والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات.



شعراً، قال أبو العتاهية:

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها
فكيف ما انقلبت يوماً به انقلبوا

يعظمون أخا الدنيا فإن وثبت
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

يقول أبو النشاشي:

فالموت خير للفتى من حياته
فقيراً ومن مولى تدب عقاربه

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى
ولا كسواد الليل أخفق صاحبه

ولأحد الشعراء قوله:

يغطي عيوب المرء كثرة ماله
يصدق فيما قال وهو كذوب

ويزرى بعقل المرء قلة ماله
يحمّقه الأقوام وهو لبيب

ولأحد الشعراء أيضاً قوله:

وما مقلُّ حين يغدو لحاجة
إلى كل من يعدو من الناس مذنب

وكان بنو عمي يقولون مرحباً
فلما رأوني معدماً مات مرحب

○○○○○

الموت لا يعصم منه شيء!!

قال الشاعر صردر - واسمه أبي منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل - قصيدة رثائية عزى بها ابن فضلان في أخته بلغت واحداً وخمسين بيتاً تعد من أجود قصائد العزاء. وقد أورد فيها ذكر الموت. وأنه آت إلى كل حي مهما بلغت به السن، أو أقام حول نفسه احتياطات وسياجات يزعم أنها ستقيه من غائلة الموت، أو تدفع عنه المنية إلى وقت. إذ لا شيء يعصم من أمر الله إذا حلت المنية وقضي الأجل.

قال نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لابنه كنعان من زوجته «واعلة» وكان منافقاً يخفي نفاقه في معزل عن أبيه: يا بني اركب السفينة معنا فإن طوفاناً سيعم الأرض ويشمل السهل والوعر ويغرق من فيها. فأجابه كنعان: إن قمة الجبل أنجا من السفينة التي تجري على الماء. وعصى كنعان أباه لأمر قدره الله وقضاه.

قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وأعود إلى قصيدة صردر لأقتطف أبياتاً تناسب هذا الموضوع، يقول:

نلوم الطبيب وما جرمه
وداء المنية داء عقام



إذا فَذْ لك العيش عمر الفتى

فسيان ما خلفه والإمام

ويقول أن المرء لا يستطيع دفع منيته، فالمنية آتية إليه سواء كان في جهة العراق أو في جهة الشام أو بجوار زمزم أو المقام:

وما يعصم المرء من حتفه

عراق يحل به أو شآم

بأي حمى مانع يستجار

إذا لم يجر زمزم والمقام

ظباء البطاح لها مصرع

وعصم لها بالجبال اعتصام

والبقاء بعد من رحلوا منا هو الإشارة الصادقة بأننا على الأثر، وسوف نسلك الطريق الذي سلكوه لا محالة:

يحدثنا بالفناء البقاء

ويخبرنا بالرحيل المقام

بهذا قضى الدهر في أهله

تمر فئام وتأتي فئام

يعللنا برضاع المنى

وعما قليل يكون الفطام

والفئام: الجماعات.

○○○○○

ابن نفطويه، وابن النبيه
يضمنان بيتاً من الشعر

حينما نلقي نظرة على التراث الأدبي نجد أن مجتمع الشعراء والأدباء فيما مضى يزخر بألوان الأدب ويفيض بالحكمة والمنطق، وكل ما هو بديع وممتع ومفيد.

والحديث الذي يدور في أرجاء تلك المجتمعات لا يقتصر على فن من الفنون، بل هناك شمولية تتكون في مفهومها العام من الفكاهة، والنادرة والرواية والبحث ومن الجدل والمنطق والفلسفة والمداعبة، والشعر الجاد والدعابي، وأنواع من الغزل، جده وهزله، وواقعه وخياله.

ولا أخالني مخطئاً إذا قلت أن مجالس القدامى تشكل في هيئتها مدرسة ذات مناهج متعددة... وليس أدل على ذلك مما خلفوه لنا من تراث علمي ومعارف عامة في مختلف شؤون الحياة.

ومن النشاطات الأدبية التي نلحظها في أداب الشعراء ما يدور بينهم من مراسلات شعرية وتقاولات ومحاورات بديهية وغير بديهية؛ كالتشطير، والتخميس، والإجازات، وغير ذلك من التضمينات والاقتباسات.

ذكر علي بن ظافر الأزدي في كتابه «بدائع البداثة»، فقال: أخبرني الأديب أبو القاسم بن نفطوية، قال: أنشدني بعض أصحابنا بيتاً وسألني أن أضمنه، وهو:



فليت الشمس لو بقيت قليلا
ففيها كلما بقيتْ بقائي

فصنعت بديهاً:

ولما أن تلاقينا بكينا
بكاء القرب من بعد التنائي

وسمت دوام الوصل منه
فأعرض عند ذاك عن اقتضائي

وواعدني إذا ما الشمس غابت
وولت لا سبيل إلى اللقاء

فليت الشمس لو بقيت قليلا
ففيها كلما بقيت بقائي

قال: ثم مر بي القاضي أبو الحسن علي بن النبيه فأنشدته البيت وسألته أن يضمنه، فقال بديهاً:

عسى العيسى التي ظعنت بسلمى
تعود بها وننعم باللقاء

توالت بالعشي ولا عجيب
مغيب الشمس في وقت العشاء

فليت الشمس لو بقيت قليلا
ففيها كلما بقيت بقائي

○○○○○

بديهة من فوق النطع، وتحت السيف

من الناس من لا يعرف الانهزامية مهما تعثرت به الحياة. ولا تهزه الحوادث التي تحدق به وتنزل بساحته مهما كبر حجمها. ولا يتسلل إلى قلبه الجبن وإن وقع في فخاخ أعدائه، بل لا تخبو جذوة حرارة نفسه ولا يرهبه تهديد ولا وعيد، وإن كان واقعاً في يد أعدائه وقوعاً لا مفر منه لأن عزة النفس ورباطة الجأش يمدانه بقوة لا تذل وإن سلط عليها السيف، ولا تنهزم وإن أذيقت طعم الموت.

ذكر صاحب كتاب «العقد الفريد» أن جميل بن تميم - زاد صاحب بدائع البداية - التغلبي عاث ببعض الأعمال في شاطئ الفرات فحمله مالك بن طوق إلى المعتصم فلما قدم بين يديه، وأحضر السيف والنطع لقتله، رآه المعتصم جميلاً وسيماً فأحب أن يعلم كيف منطقه، فقال له: تكلم. لينظر أين جنانه ولسانه من منظره، فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين.

يا أمير المؤمنين: إن الذنوب تخرس الألسنة، وتُصدع الأفئدة، ولقد عظمت الجريمة وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أولاهما بامتنانك وأشبههما بخلائقك ثم أنشأ أبياتاً منها قوله:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً
يلاحظني من حيثما أتلفت



وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
وأي امرئ مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين عينيه مصلت

ومنها قوله:

وما جزعي من أن أموت وأنني
لأعلم أن الموت شيء موقت

ولكن خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت

كأني أراهم حين أُنْعَى إليهم
وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا

فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة
أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

فكم قائل لا يبعد اللّه روحه
وآخر جذلان يسر ويشمت

قال: فابتسم المعتصم، وقال: كاد والله يا تميم يسبق السيف العذل، اذهب فقد غفرت لك الصبوة - يعني الجهل والطيش - وتركتك للصبية.

OOOOO

ألم تر أن!!

يقف الإنسان الذي يملك إحساساً سليماً وعقلاً مدركاً، وفكراً ذكياً، وقلباً حاذقاً في حيرة من أمر ما يدور حوله، فتتزاحم الكلمات على شفتيه للتعبير عن شعوره بما يسمع ويرى، لكنه يقتلها على شفته ليمعن في طلب ما وراء تلك الأشياء التي يشهدها يومياً، غير أنه يبوء بالفشل ويعود إلى التماس خيوط كل ما أثار دهشته ليمسك بها واحداً واحداً ويعرف الناس بها. فلا يجد أمامه إلا أثراً يقرأ على أديمه حركات كانت وانتهت. فيقف في ذهول أمام تلك التغيرات ثم يدرك أن مضي تلك الأشياء يفرض عليه إعداد تقرير صادق عن كل ما قد أثار دهشته من ألوان الحياة واتجاهاتها المتعددة وأطوارها الغريبة التي كان يعايشها حيناً ويفتقدها حيناً آخر.

والإنسان الذي يحاول أن يسجل جميع ما مر في حياته هو إنسان يحاول تخفيف عبء الحياة بالبوح بكل ما تحمله قافلة الحياة من أشياء. وذلك إدراكاً منه بأن الذي سيأتي بعده ويقرأ ما سجله من ملاحظات تدعو للعجب والتعجب سيقف لا محالة متسائلاً عن طبيعة الحياة التي مر بها، وسيقدم له الشكر، ويفيض عليه آيات الترحم تقديراً لما حفظه له التاريخ من رأي وفكر وحكمة وعلم وأدب. وكأنه بذلك يقول لمن يخلفه على مسرح الحياة إياك أن تمر ولا تسجل لمن بعدك شعورك، وتقول رأيك وتفصح عن كل ما أثار إعجابك ودعا إلى تعجبك. وتقول أيضاً بلسان حالك مستطرداً في حديث توجيهي تتصدره عبارة: «ألم تر أن»، ثم تذكر بعدها ما قد لفت نظرك وأستنطقك مقتفياً بذلك أثر أبي العتاهية في قوله:

ألم تر أن الناس في غفلاتهم
وأن المنايا بينهم تتقعقع

ألم تر لذات الجديد إلى البلى
ألم تر أسباب الأمور تقطع

ألم تر ريب الدهر في كل ساعة
له عارض فيه المنية تلمع

ألم تر أن الفقر يعقبه الغنى
ألم تر أن الضيق قد يتوسع

ألم تر أن الموت يهتز سيفه
وأن رماح الموت نحوك تشرع

ألم تر أن المرء يشبع بطنه
وناظره فيما ترى ليس يشبع

ألم تر أن المرء يحبس ماله
ووارثه فيه غدا يتمتع

ولأبي العتاهية في موضع آخر:

ألم تر أن للأيام وقعاً
وأن لوقعها عقراً وجدعا

ooooo

نظرة صردر

إلى علاقة الإنسان بالأرض

يقف الإنسان الذي يملك مقاليد التدبر فيما حوله من الأشياء ممعناً النظر في أسرار تلك الأشياء التي منها ما يماثله بالبدء والانتهاء. ومنها ما هو مغاير له في التكوين والتركيب والطبيعة، وإمعان النظر في علاقة الإنسان بالأرض موضوع نظر فيه عمالقة المفكرين وكبار الفلاسفة وفحول الشعراء. فمنهم من جاء بأراء موافقة للواقع، ومنهم من جاء بما لا يتفق والمفاهيم العلمية التي تحدد علاقة الإنسان بالأرض وتفاعل طبيعته مع مناخاتها وجغرافيتها.

وفلاسفة الإسلام وشعراؤه لا يخرجون في كثير من تحليلاتهم لتلك العلاقة عن منطوق الآية القرآنية الكريمة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وهم بهذا يعدون الأرض أماً للإنسان؛ لأنه كوّن من ترابها وتم خلقه من طينتها.

يقول صردر ـ واسمه أبي منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل ـ من قصيدة له يرثي بها أحدهم:

هـــذه الأرض أمـــنـــا وأبـــونـــا

حـمـلـتـنـا بـالـكـره ظـهـراً وبـطـنـا

ويظهر صردر علاقة الإنسان بالأرض حياً أو ميتاً. وماذا يعني بالنسبة لها، فيقول:

إنما المرء فوقها هو لفظ
فإذا صار تحتها فهو معنى

لو رجعنا إلى اليقين علمنا
أننا في الدنا نشيد سجنا

ويصور رحلة الإنسان فوق الأرض محدداً منطلق البداية ونقطة النهاية بقوله:

إنما العيش منزل فيه بابان
دخلنا من ذا ومن ذا خرجنا

مثلما تسرح السوام إلى المرعى
وتثني عنه غدونا ورحنا

وضروب الأطيار لو طرن ما طرن
فلا بد أن يراجعن وكنا

ويظهر صردر فلسفة بارعة في بلورة حقيقة الابتداء والانتهاء، والوجود من بعد العدم، والعدم من بعد الوجود بالنسبة للإنسان، فيقول:

مبتدانا ومنتهانا سواء
فلماذا من الأخير عجبنا

فوجدنا من بعد ما قد عدمنا
وعدمنا من بعد ما قد وجدنا

ولأبي العلاء المعرّي آراء ونظرات كثيرة في علاقة الإنسان بالأرض بل له فلسفة خاصة به في هذا الموضوع.

قال في قصيدة من قصائد اللزوميات، وهو يذكر فيها فعل تعاقب الليل والنهار، وكيف أنهما يطويان عمر المخلوقات بتتابعهما.



أن الأرض قالت لبني الإنسان: إن الله غذّاكم مني، لكنه عوضني عما خسرته من عنصر في تغذيتكم بأن غذاني بأجسامكم:

غـذاكـم الـلّـه مـنـي ثـم عـوضـنـي
مـمـا لـقـيـت فـبـالأجـسـام غـذانـي

○○○○○

من صور التوبة

تمارس فئة من الناس أعمالاً دنيئة مخلّة بالشرف والدين كالسطو على المنازل والممتلكات والسرقة وغير ذلك من الأفعال التي يندم على فعلها من يرجع إلى عقله ويماليه رشده ممالاة توجع الضمير تأنيباً، وتبعث على النفس حسرة وتعذيباً.

روى أبو العباس المبرد في كتابه «الكامل في الأدب» أنّ يزيد بن الصقبل كان يسرق الإبل ثم تاب من ذلك، وقال:

إلا قل لأرباب المخائض أهملوا
فقد تاب مما تعلمون يزيد
وإن امرءاً ينجو من النار بعدما
تزود من أعمالها لسعيد

قال ابن المبرد: وقد قُتل يزيد هذا في سبيل الله.

ولقد أكثر الشعراء من الحث على قطع الأعمال السيئة بسيف التوبة الخالصة لله.

قال أبو عمر بن عبد ربه واسمه أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي:

بادر إلى التوبة الخلصاء مبتدئاً
والموت ويحك لم يمدد إليك يدا
وارقب من اللّه وعداً ليس يخلفه
لا بد للّه من إنجاز ما وعدا

والذي يستمر على ارتكاب الأفعال المنافية لمبادئ الدين، ثم يأمن الدهر أو يسوف عندما تحدثه نفسه بالإقلاع عن ممارسة تلك الأفعال وتجنبها، فإنه يوشك أن يرحل من الدنيا وهو مقيم على الأفعال التي لا تتفق والأخلاق القويمة، وهذا هو ما نبه إليه محمد بن حازم في قوله:

قد جرى بالسر نحس
وجرى بالخير سعد

وجرى الناس على جر
يهما قبل وبعد

أمنوا الدهر وما للد
هر والأيام عهد

إنها الدنيا فلا تحـ
فل بها جزر ومد

○○○○○

أين أولئك؟

ونحن إذا ما وقفنا وقفة تأملية نستقرئ من خلالها مسيرة الحياة، وتدبرنا جيداً حركة الزمان، وما على صفحات سجله من أثر يدل على أن الناس مختلفون في معايشة الزمان، استطعنا أن نستكشف من خلال تصفحنا لصفحات الأسفار التي حوت أخبار الناس، أن من بينهم فئة لها أثر باقي يتصل بكل جديد ويؤثر فيه بواقعه وفئة عايشت الزمان ثم مضت وكأنها لم تكن، إذ لم تخلف شيئاً ينسب إليها وتعرف به. أما في مجمل السؤال عمن سلفوا فإن الجواب لايخرج عن القول بأنهم مضوا جميعاً مضياً يملي على كل متأمل في مصير الدنيا ومسيرة الحياة أن يقول: أين أولئك؟ حتى يحقق له الجواب قناعة في الدنيا وأملاً في الآخرة.

قرأت لأحدهم قوله: «أين المعمر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالد»؟.

قال تعالى في سورة مريم آية ٩٨: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ وجوه علاهن الثرى، وصحائف تفض، وأعمال على الله تعرض.

وفيما قيل من أشعار حول هذا الموضوع قول أحدهم:

ما فوق وجه الأرض نفس حية
إلا وقد انقض عليها الأجل

لوأنهم من غيرها قد كونوا
امتلأ السهل بهم والجبل



ما ثم إلا لقم قد هيئت
للموت وهو الآكل المستعجل
والوعد حق والورى في غفلة
قد خودعوا بعاجل وضللوا
أين الذين شيدوا واغترسوا
ومهدوا وافترسوا وظللوا
أين ذووا الراحات زادت حسرة
إذ جُنبوا إلى الثرى وانتقلوا
لم تدفع الأحباب عنهم غير أن
بكوا على فراقهم واعولوا
اللّه في نفسك أولى من له
ذخرت نصحاً وعتاباً يقبل

○○○○○

عظة من شاعر

هناك شعراء كثيرون، نذروا أنفسهم لإرشاد الناس وتوجيههم فنظموا القصائد الوعظية التي تحرك القلوب وتهز المشاعر وتذكر باليوم الآخر، وتوقظ في النفوس الغفلة عن كل عمل إنساني. وهناك آخرون، أخذوا بنصيب من الوعظ ونصيب من الأمور الدنيوية وشيء من فنون الحياة المختلفة. غير أن الشاعر المسلم مهما غالى في طرق أبواب الفنون الأخرى. وذهب فيها مذاهباً متعددة إلا أن مسحة الصبغة الإسلامية تبدو واضحة بين أبيات أي قصيدة تتضمن أي موضوع من المواضيع التي تنشأ عن أي خاطرة تخطر بباله. وقبل أن أعرض صورة من صور الوعظ المنظوم أرى أن نستعرض طرفاً من مواعظ لسان الدين بن الخطيب المتعلقة بالبحث على الاعتبار بمن قد سلف والتزود من الدنيا بزاد الآخرة إذ يقول: «إخواني صمت الآذان والنداء جهير، وكذب العيان والمشار إليه شهير، أين الملك وأين الظهير؟ أين الخاصة أين الجماهير؟ أين القبيل والعشير؟ أين كسرى؟ أين أردشير؟

صدق والله الناعي، وكذب البشير، وغش المستشار، واتهم المشير». وسئل عن الكل فأشار إلى التراب المشير.

خذ من حياتم للممات الآتي
وبدار ما دام الزمان مواتي

لا تغترر فهو السراب بقيعة
قد خودع الماضي به والآتي



يا من يؤمل واعظاً ومذكراً
يوماً ليوقظه من الغفلات

هلا اعتبرت ويا لها من عبرة
بمدافن الآباء والأمات

قف بالبقيع وناد في عرصاته
فلكم بها من جيرة ولدات

درجوا ولست بخالد من بعدهم
متميز عنهم بوصف حياة

واللّه ما استهلك حياً صافياً
ألا وأنت تعد في الأموات

لا فوت عن درك الحمام لهارب
والناس صرعى معرك الآفات

○○○○○

وكم!!

ومما استوقفني أثناء قراءتي لديوان حنابك الأسعد ابن أبي صعب الذي سبقت ترجمته في موضوع تقدم في هذا الجزء تحت عنوان: «إلى م!!» قصيدة مطلعها:

في غفلة الدهر ما للفن أوطار
ولا ينيل المنى للفضل مقدار

وقد سماها «الرائية الكبرى».

والحقيقة أنها قصيدة صور فيها أحوال الدهر وتقلبات الزمان، وما يأتي به من انعكاسات تغير من أحوال الناس فترفع الوضيع، وتخفض الكريم وتعلي شأن هذا وتحط من قيمة ذاك، وما إلى ذلك مما نشهده كواقع لا تتطلب حالته استشهاداً، ولا استدلالاً يقام عليه.

ولقد أطال فيها النفس - وأعني بذلك القصيدة - حتى بلغ بها مائة بيت تخللها ثمانية وعشرين بيتاً كلها مبدوءة بـ «كم» الخبرية التي عدد بها أحداثاً ومتغيرات كان لعامل الزمن فيها يد، ولصروف الدهر فيها تصرف.

وقد كان للشاعر حنابك صحبة في عرض القصيدة التي ذكرت مطلعها مع «كم» الخبرية، حيث صدر بها أبياتاً متوالية جاءت على النحو التالي:

وكم فصيح تردى آنفاً صمما
وأبكم قد تبدا وهو مهذار



وكم حليم لقد خالوه ذا حمق
وكم حكيم نهاه عندهم عار

وكم جهول أتى يزهو بغرته
ممدوحة منه بين الناس أطوار

وكم نقاب فلا ترجى مناقبه
وكم مهوب فلم يعبأ به الجار

وكم بليغ لقد ذُمت بلاغته
وأبكم أعجم في مدحه جاروا

وكم أديب أريب شاعر لسن
أمسى كباقل أعيت منه أفكار

وكم همام لقد أمسى بلا همم
أوهت عزائمه بالهم أكدار

○○○○○

الطفل في عين الوالد والجد

إن الكلام عن الأطفال شيق وممتع، ولقد قيل: الأطفال زهرة الحياة الدنيا، وبهم تقر العين وتكمل السعادة، ويحصل الأنس.

وبالنظرات الطاهرة التي تفيض من عيونهم تمتلئ القلوب بمحبتهم وتطفح بالعطف عليهم وبما يشع في وجوههم من براءة تتفجر القلوب حناناً عليهم ورفقاً بهم.

والأطفال بطبيعتهم وبراءة تصرفاتهم، وبما يصدر عنهم من ضحكات وكلمات تنصت لبراءتها وطهرها أذن الدنيا يملؤون نفوس الكبار غبطة وسروراً.

وفي حركاتهم ما يطرب إنسان العين، إذ أن تشابك أيديهم أثناء لعبهم وتمازحهم يرسم أمام العين صورة تعانق البراعم الناعمة والتفاف الغصون اللينة حول بعضها.

ويحاول كل أب أن يعبّر عما يختلج في نفسه من سرور وسعادة واغتباط بوجود أطفال له يسرحون ويمرحون على مسرح الحياة الاجتماعية فلا يجد من الكلمات ما يعبر به عن تلك الغبطة وتستحيل لديه كل التعبيرات إلى محاولات لا تصل إلى نقل الصورة التي بداخل القلب، لأنها صورة يعجز التعبير عن الإحاطة بوصفها أو رسمها.

ومن محاولات الشعراء لنقل هذا الإحساس والإفصاح عن ذلك الشعور ما قاله الشاعر بدوي الجبل في قصيدة أهداها إلى حفيد له واسمه محمد، اقتطف منها قوله:



وسيماً من الأطفال لولاه لم أخف
على الشيب أن أنأى وأن أتغربا

تود النجوم الزهر لو أنها دمى
ليختار منها المترفات ويلعبا

وعندي كنوز من حنان ورحمة
نعيمي أن يغرى بهن وينهبا

يجور وبعض الجور حلو محبب
ولم أر قبل الطفل ظلماً محبباً

ويغضب أحياناً ويرضى وحسبنا
من الصفو أن يرضى علينا ويغضبا

وإن ناله سقم تمنيت أنني
فداء له كنت السقيم المعذبا

يزف لنا الأعياد عيداً إذا خطا
وعيداً إذا ناغى وعيداً إذا حبا

كزغب القطا لو أنه راح صاديا
سكبت له عيني وقلبي ليشربا

○○○○○

الفصاحة والمنطق

جاء في كتاب الكامل للمبرد أن صبرة بن شيمان الحداني دخل على معاوية والوفود عنده فتكلموا فأكثروا، فقام صبرة فقال: يا أمير المأمنين، إنا حي فعال، ولسنا بحي مقال.

ونحن بأدنى فعالنا عند أحسن مقالهم، فقال: صدقت. وفي الكامل قال المبرد أيضاً: حدثت أن أبا بكر رضي الله عنه ولّى يزيد ابن أبي سفيان ربعاً من أرباع الشام. فرقى المنبر فتكلم فارتج عليه، فاستأنف فارتج عليه فقطع الخطبة، فقال: سيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد عَيَ بياناً، وأنتم إلى أمير فعَّال أحوج منكم إلى أمير قوّال. فبلغ ذلك عمرو بن العاص، فقال: هن مخرجاتي من الشام استحساناً لكلامه. وللشعراء على حسب شرطي قول في هذا المعنى يقول المتنبي:

كلام أكثر من تلقي ومنظره
مما يشق على الأسماع والحدق

ويقول صالح بن عبد القدوس:

ومن الرجال إذا استوت أحلامهم
من يستشار إذا استشير فيطرق

حتى يجول بكل واد لبه
حزماً فيعرف ما يقول فينطق

لا ألفينك ثاويا في غربة
إن الغريب بكل سهم يرشق

وزن الكلام إذا نطقت فإنما
يبدي عيوب ذوي العقول المنطق

ويقول آخر:

يعمل الفكرة في ردى بها
قبل أن أفرغ منها ناطقا

ويقول أبو العتاهية:

وللناس فرق في الكلام والسن
وأقربها من كل خير صدوقها

وما صح إلا شاهد صح غيبه
وما تنبت الأغصان إلا عروقها

ООООО

مخالفة لسنة الحياة!!!

يقول الشاعر أحمد الصافي النجفي:

ترهبت عن حرية لا تنسك
فلست لنساك ولست لزهاد

وما كنت يوماً للطبيعة خاضعاً
بإنتاج أولاد وإنتاج أحفاد

تركت لها غيري مطاياً وأعبداً
وإن عد منهم والداي وأجدادي

لأن تحرم الأولاد تفنى فإنني
أعوضها بالشعر أخلد أولاد

ولأن كان النجفي قد أظهر عدم رغبته في الإنجاب بهذا المنطق الفلسفي العلائي الأسلوب الذي لا يتفق وواقع الحياة، ويتعارض مع عمارة الأرض وبقاء الإنسان كوارث وموِرث لها.

ولأن كانت للنجفي نظرة تشاؤمية خاصة به نحو الأولاد، فإنه لا يحسن به الإعلان عن ذلك، ولا الدعوة إلى عدم التناسل لمجرد حالة نفسية يعانيها.

ولأن كان قد حرم من الإنجاب بعامل عقم أو بفعل ظاهر يمنعه من الاختلاط، ويريد بتلك الدعوة أن تتساوى كفة الميزان عنده مع بقية أفراد مجتمعه، فهذا ما لا يليق به كإنسان يعرف ما لوجود الإنسان على هذه البسيطة من قيمة ومكانة، الله خصه بها.

ولأن كان لي رأي في رأي النجفي هذا، فهو لا يتعدى الوقوف على القول بأنه أراد أن يجاري أبا العلاء المعرّي في نظرته التشاؤمية للحياة، ويتجاوب مع ما أوصى به.

وأعني بذلك أبا العلاء المعرّي الذي أوصى بأن يكتب على قبره:

هـــذا جـــنـــاه عـــلـــي أبـــي
ومـــا جـــنـــيـــت عـــلـــى أحـــد

ولأبي العلاء المعري أيضاً إشارات ونظرات حول الإنجاب حيث رأى في أكثر من موضع في ديوانه «لزوم ما لا يلزم» أن الإنجاب جناية.

وهذا المنطق فيه محاربة لسنة من سنن الحياة، ودعوة باطلة تهدف إلى تقليص الإنسان تقليصاً يؤدي إلى انقراضه... يقول:

كـونـي الـثـريـا أو حـضـار أو الــ
جـوزاء أو كـالـشـمـس لا تـلـد[1]

فـلـتـلـك أشـرف مـن مـؤنـثـة
نـجـلـت فـضـاق بـنـسـلـهـا الـبـلـد

ويقول في موضع آخر:

قد ساءها العقم لا صمت وولدت
وذاك خيـر لـهـا لـو أعـطيـت رشـدا

وأعود للنجفي لأقف معه على بيته الرابع من الأبيات المتقدمة وأقول له: وهل الشعر كالولد الصالح الذي يدعو لك؟ شتان بين هذا وذاك.

---

(١) حضار: اسم نجم.

هل يترك الشعراء الشعر

الشعراء مهما عذلوا في قول الشعر ونهوا عنه أو طلب إليهم تركه، فإنهم لا يسمعون في ذلك قولاً، ولا يجيبون إلى ذلك داعياً، وسبب ذلك الرفض يرجع إلى أن الشعر قد أصبح لديهم وسيلة تعبيرية ينقلون من خلالها مشاعرهم ومشاهداتهم، ولهذا فإنه من المتعذر جداً على أي شاعر أن يلجم لسانه ويصوم عن قول الشعر مهما فرضت عليه الظروف ذلك.

ولأن قلت أن الشعر يصبح جزءاً من جسد الشاعر يختلط به دمه ولحمه فهي الحقيقة المسلم بها.

وهي الحقيقة التي نلمسها من الشعراء الذين نراهم يزمعون العزم على هجر الشعر وتركه لسبب طارئ أو لآخر، فلا يلبثون قليلاً من الوقت حتى تطل الأبيات بأعناقها من أفواههم.

يقول صردر ـ واسمه أبو منصور علي بن الحسين بن علي بن الفضل ـ:

لقد قال لي الناس: ذر الشعر واستعذ بالله من شيطانه، فعرفت أنهم يدعونني إلى ذلك عن جهل وشر قد خالط عقولهم، لأن هاتان الخصلتان هما اللتان حملتهم على تصغير شأن الشعر وتحقيره وتقليل أمره:

قالوا ذر الشعر وكن عائذاً
بالله يصرف عنك شيطانه

في الناس جهل وبهم شرة
لأجل ذين صغروا شأنه

ثم يتهمهم بأن دعوتهم إياه لترك الشعر ما هي إلا نقص وتقصير في فهمهم للّفظ والمعنى الذي ينطوي عليه الشعر وجهل أعياهم عن إدراك ميزانه وجمال توازن ألفاظه وعباراته، فهم بجهلهم، ينكرون رجحانه ولا يدركون نقصانه:

لم يفقهوا اللفظ ولم يفقهوا الـ
معنى ولا يدرون ميزانه

فكلهم ينكر رجحانه
وكلهم يجهل نقصانه

فكان جوابه على مطالبتهم له بترك الشعر:

قلت أمن أجل عمى فيهم
لا يظهر المعدن عقيانه

هبو لساني راعباً ناعقاً
دعا بما تجهله ضانه

قد يطرب القمري أسماعنا
ونحن لانفهم ألحانه

أما الشاعر أحمد الصافي النجفي فيقول أن العقلاء لا يفهمونه إلا بعد لأي وجهد، ويرى أن عجزهم عن فهمه ما هو إلا مس من الجنون قد خالط عقولهم فلم يستطيعوا بذلك فهم مقاصده ومآرب ما احتوت عليه أشعاره:

أرى العقلاء تفهمني بجهد
أيفهم كل مجنون شؤوني

كأن... عند ابن هاني الأندلسي

لقد ذكرت في موضوع سابق حول التشبيه بـ «كأن»، وأن أفضل من استخدمها في التشبيه هو ابن المعتز كما هو رأي عبد العزيز سيد الأهل الذي قام بدراسة أدب ابن المعتز، وعلمه وقد فضله على ابن هاني الأندلسي الذي هو الآخر قد استخدم «كأن» في التشبيه في أبيات متوالية.

وقد وعدت بأن أوردها في موضوع قريب، وها أنذا أثبتها هنا، فلعلك أيها القارئ العزيز تقيم معادلة بين ركوب ابن المعتز لـ «كأن» في التشبيه، وانتهاج ابن هاني الأندلسي لها. فتؤيد رأي عبد العزيز سيد الأهل أو تعارضه.

عموماً هذه هي أبيات ابن هاني الأندلسي التي وعدت بإرادها، يقول:

كأن ظلال الخافقات أمامه
عمائم نصر اللّه لا تتقشع
كأن السيوف المصلتات إذا طمت
على البر بحر زاخر الموج مترع
كأن أنابيب الصعاد أراقم
تلمظ في أنيابها السم منقع
كأن العتاق الجرد مجنونة له
ظباء ثنت أجيادها وهي تتلع



كأن الكمأة الصيد لما تغشمرت
حواليه أسد الغيل لا تتكعكع

كأن سراع النجب تنشر يمنةً
على البيد آل في الضحى يترفع

كأن حماة الرحل تحت ركابه
سيول نداه أقبلت تتدفع

كأن صعاب البخت إذ ذللت له
أسارى ملوك عضها القد ضرع

والقصيدة طويلة جداً فمن أراد أن يطلع عليها يرجع إلى ديوان ابن هاني الأندلسي.

○○○○○

بيوت العزّ أربعة كبار!!

تروي كتب الأدب أن جريراً قال لذي الرمّة: أنشدني ما هجوت به المرئي فأنشده قصيدته التي مطلعها:

نبت عيناك عن طلل بحزوى
عفته الريح وأمتنح القطارا[1]

فأطال في الإنشاد بما لا يقنع به جرير ولا يرى فيه إظهاراً للمفاخرة واعتزازاً بأصالة النسب، فقال له: أفأرفدك؟ - يعني أمدك أو أساعدك - قال ذو الرمة: نعم. قال جرير:

يعد الناسبون إلى تميم
بيوت العز أربعة كبارا

يعدون الرباب لها وعمرا
وسعداً ثم حنظلة الخيارا

ويهلك بينها المرئي لغواً
كما ألغيت في الدية الحوارا[2]

فضمنها ذو الرمة قصيدته ووصلها بقوله:

هم وردوا الكلاب ولست فيهم
ولا في الخيل إذ علت النسارا[3]

---

(١) امتنح من المنيحة أي صار يشرب القطار.
(٢) الحوار لا يؤخذ في الدية.
(٣) النسارا: جبل.

وفيها يقول:

إذا المرئي شب له بنات
عصبن برأسه إبة وعارا

ويقول:

إذا مرئية ولدت غلاماً
فالأم مرضع نشغ المحارا[1]

ويختمها بقوله:

إذا شئت أن تلقى لئيما
فأوقد يأتك المرئي نارا

والقصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وخمسين بيتاً.

وجاء في «الأغاني» أن الفرزدق مرّ بذي الرمة وهو ينشد هذه القصيدة، فلما أنشد الأبيات الثلاثة التي زوده بها جرير، قال له الفرزدق: أعد يا غيلان. فأعاد، فقال له: أأنت تقول هذا؟ قال: نعم يا أبا فراس. قال: كذب فوك، والله لقد علكها أشد لحيين منك، هذا شعر ابن الأتان ـ يعني جرير ـ.

○○○○○

(١) نشغ المحار: المحار: الصدف، ونشغ أوجر.

بائية ذي الرمة

ما من قصيدة ذات هدف إلا ويكون لها عين، ولا من مجموعة قصائد إلا ويكون من بينها قصيدة متميزة عما سواها، ولذلك نجد أن من الشعراء من يشيع ذكره ويطير صيته فوق جناح قصيدة برع في صنعها وأجاد في إنشائها.

وبائية ذي الرمة نالت استحساناً ونال بها شهرة حيث لقيت من شعراء ورواة عصره قبولا.

بل أن الشاعر جرير قد غبطه بها، وتمنى أنه هو قائلها وذلك بقوله:

لو خرس ذي الرمة بعد قصيدته «ما بال عينك منها الماء ينسكب» كان أشعر الناس.

وكان يقول ـ والمعنى بذلك جرير ـ: ما أحببت أن ينسب إلي من شعر ذي الرمة إلا قوله: «ما بال عينك منها الماء ينسكب»، فإن شيطانه كان له فيها ناصحاً.

والحقيقة أن بائية ذي الرمة أخذت مكانها من بين فرائد القصائد وانتخبت ضمن ما انتخب من القصائد العصماوات، وحظيت باهتمام الدارسين فاستخرجت من الديوان كما تسترج الدرة من قاع البحر، وتعرضت لدراسات عديدة من كثير من المهتمين بالأدب ونقد الشعر ودراسته.

وهي قصيدة طويلة بلغت مائة وستة وعشرين بيتاً اشتملت على

الوقوف على الأطلال، ووصف الناقة والتغزل ومطاردة حمير الوحش واصطيادها وغير ذلك وقد استهلها بقوله:

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب

ومنها قوله:

ديارمية إذمي تساعفنا
ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

براقة الجيد واللبات واضحة
كأنها ظبية أفضى بها لبب

تريك سنة وجه غير مقرفة
ملساء ليس بها خال ولا ندب

ومنها قوله:

زار الخيال لمي هاجعاً لعبت
به التنائف والمهرية النجب

معرساً في بياض الصبح وقعته
وسائر السير إلا ذاك منجذب

وفيها يصف الظليم بالحبشي الذي يتبع الأثر:

كأنه حبشي يبتغي أثرا
أومن معاشر في آذانها الخرب

هَجَنعُ راح في سوداء مخملة
من القطائف أعلى ثوبه الهدب

○○○○○

ذو الرمة يفتخر بصنع التشبيه

الشعراء الكبار، والذين يتصفون بصفة الفحولة في الشعر، يكون لكل واحد منهم إخصاب في ناحية من نواحي البديع وقدم ثابت في ميدان البلاغة، فمنهم من يكون له مهارة في وصف الطبيعة.

ومنهم من لا يباري في أسلوب الهجاء، ومنهم من لا يجاري في المديح، ومنهم من له باع لا يطاول في الرثاء، ومنهم من لا يدرك له شأو في الغزل.

وهكذا نجد لكل واحد منهم تفوقاً في مجال معين، أما الشاعر الفحل ذو الرمة، واسمه غيلان بن عقبة بن بهيش العدوى فقد برع في التشبيه والتمثيل، فهو إذا قال: «كأن»، ثم جاء بالمشبه به فلا بد أن يكون مناظراً ومطابقاً للمشبه.

وذو الرمة يفتخر بهذه الميزة، وهذه الخاصية التي اختص بها دون شعراء عصره، قال حماد الراوية: «أحسن الجاهلية تشبيهاً امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهاً ذو الرمة».

يروى عن عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير ـ وهو شاعر فصيح من أهل اليمامة ـ أنه قال: قال ذو الرمة: إذا قلت «كأن» فلم أجد وأحسن فقطع الله لساني.

وبناءاً على ما جاء في هذه العبارة استعرضت ديوان ذي الرمة فوجدت أنه قد جاء بـ «كأن» فيما يقرب من ثلاثمائة موضع، ومن تلك التشبيهات قوله، من قصيدة عينية طويلة يصف فيها ناقته بقوله:



كأن الولايا حين يطرحن فوقها
على ظهر برج من ذوات الصوامع[1]

قطعت بها أرضاً ترى وجه ركبها
إذا ما علوها مكفأ غير ساجع

كأن قلوب القوم من وجل بها
هوت في خوافي مطعمات لوامع

من الزرق أو صقع كأن رؤوسها
من القهز والقوهي بيض المقانع[2]

إذا قال حادينا لتشبيه نبأة
صه لم تكن إلا دوي المسامع

كأني ورحلي فوق أحقب لاحه
من الصيف شل المخلفات الرواجع

وفي موضع آخر من نفس القصيدة وبعد أن خلص من وصف حمير الصيد ومطاردتها، يقول مشبهاً تلك الحمير بالإبل السارية ليلاً، وذلك بقوله:

أولئك أشباه القلاص التي طوت
بنا البعد من نعفى قساً فالمضاجع[3]

لأخفافها بالليل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع[4]

---

(١) الولايا: الإحلاس.
(٢) الزرق الصقع: البزاة.
(٣) نعفى قساً: اسما أماكن.
(٤) السوابع: التي تشرب لسبع.

خرقاء ليس لقباً لمي

من الأسماء التي أوردها ذو الرمة في بعض قصائده اسم ـ خرقاء ـ وقد تغزل بها تغزلاً خرج فيه ـ عفا الله عنه ـ عن الحد المعقول في المغالات في إظهار الحب حيث تجاوز في ذلك تجاوزاً غيرمشروع في تمييز خرقاء عن غيرها فجعل الوقوف عليها من تمام الحج ـ عفا الله عنه ـ، يقول:

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثام

وخرقاء هذه لم يقف لها على نسب وإنما هناك تخمينات واستقراءات لا تقيم دليلاً قاطعاً على نسب واضح يحقق القول بأنها فلانة بنت فلان ابن فلان.

بل إن منهم من يزعم أن خرقاء لقب لمي صاحبة ذي الرمة التي أكثر من ذكرها وغالى في التغزل فيها.

وقد ذكر الأصمعي أن خرقاء اسم أطلقه ذو الرمة على امرأة حسناء رآها وهو في بعض أسفاره خارجة من خبائها فوقعت في قلبه فخرق قربته ودنا منها طالباً إليها إصلاحها، فقالت له: لا والله ما أحسن العمل، وإني لخرقاء، فجعل ذو الرمة هذه الصفة التي وصفت بها نفسها اسماً لها.

وهناك رواية لمحمد بن الحجاج الأسدي التميمي تنفي أن يكون «خرقاء» لقب لمي، وتثبت أن خرقاء امرأة من بني البكاء. قال محمد بن الحجاج التميمي: حججت مرة فمررت بفلجة ـ وفلجة منزل على طريق مكة من البصرة ـ فقيل لي: هاتيك خرقاء صاحبة ذي الرمة، وهي امرأة من

بني البكاء فأتيتها فإذا هي امرأة برزة فنسبتني فعرفتني ثم قالت: يا ابن أخي هل حججت قبل هذه المرة؟ قلت: نعم. قالت: فما منعك أن تمر عليّ؟ إني منسك من مناسك الحج. أما سمعت قول عمك ذو الرمة ـ تمام الحج ـ ثم ذكرت البيت، وهو بيت ليس له صلة ولم يسبقه شيء وقد كرر ذو الرمة في إحدى قصائده الميمية ذكر خرقاء، منها قوله:

أأن ترسمت من خرقاء منزلة
ماء الصبابة من عينيك مسجوم

وقوله:

هل حبل خرقاء بعد الهجر مرموم
أم هل لها آخر الأيام تكليم

وقوله:

كأنني من هوى خرقاء مطرف
دامي الأظل بعيد الشأو مهيوم

وعما يشمه من فيها وأنفها يقول:

كأنما خالطت فاها إذا وسنت
بعد الرقاد فما ضم الخياشيم

مهطولة من خزامى الخرج هيجها
من صوب سارية لو شاء تهميم

وعن بعد دارها يقول:

هيهات خرقاء إلا أن يقربها
ذو العرش والشعشعانات العياهيم

هل تدنينك من خرقاء ناجية
وجناء ينجاب عنها الليل علكوم

أكلوا

الشاعر الهجاء أبو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني الذي قال عنه أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي في كتابه «يتيمة الدهر»: إنه أعجوبة الزمان ونادرته وفريد عصره وباقعته، وهو أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء، وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه. أما وفاته فقد ذكر صاحب معجم الأدباء أنه توفي سنة ٣٩٤ من الهجرة.

ووصفه بابن الرومي يعني أنه شاعر هجاء ساخر قذع اللسان بذيئة، وليس أدل على ذلك من القصيدة التي قالها حينما عمل دعوة لوليمة أقامها في قرية ممرايا من أعمال دمشق فتأسف على إقامتها أيما تأسف. وذلك أن الذين دعاهم قد استحثوا الناس بل قالوا أبو القاسم الواساني: أنهم ضربوا البوق في دمشق مستنفرين الناس لحضور دعوته بما في ذلك المسلم منهم والنصراني والبوادي والحواضر من نجد والحجاز وكل مقيم في دمشق من الفئات الأخرى التي عددها وسماها في قصيدته، ثم قال: إنهم جاؤوا بكل رحب وسيع الإشداق والمصران.

وقد ذكر في تلك القصيدة من المبالغات في وصف نهمهم وسرعة أكلهم وشراهتهم في الأكل ما لا يتسع المجال هنا لذكره. فهي ـ وأعني بذلك القصيدة ـ طويلة جداً بلغ بها ١٩٦ بيتاً، كلها سخرية بالقوم الذين توافدوا عليه بالطريقة التي ذكرها، منها قوله في وصف شراهتهم في الأكل:

تـركـونـي يـا قـوم أفـقـر مـن فـرخ
وأعــرى ظــهــراً مـــن الأفـــعـــوان

أكـلـوا لـي مـن الـرادق الـفـيـن
بـجـبـن تـشـتـاقـه الـعـارضـان

أكـلـوا لـي أضـعـافـهـا غـيـر مـشـطـو
ر ومـالـوا إلـى سـمـيـد الـفـران

أكـلـوا لـي مـن الـجـداء ثـلاثـيـ
ن قـريـصـاً بـالـخـل والـزعـفـران

أكـلـوا ضـعـفـهـا شـواء وضـعـيـفـ
هـا طـبـيـخـاً مـن سـائـر الألـوان

أكـلـوا لـي تـبـالـة تـبـلـت عـقـلـي
بـعـشـر مـن الـدجـاج الـسـمـان

أكـلـوا لـي مـضـيـرة ضـاعـفـت ضـر
ي بـروس الـجـداء والـعـصـبـان

أكـلـوا لـي لـشـكـيـة قـرحـت قـلـ
بـي وهـاجـت لـفـقـدهـا أشـجـانـي

ومضى الواساني يكرر ـ أكلوا لي ـ في عدة أبيات غير ما ذكرته آنفاً، فعلى الراغب في الاطلاع على هذه القصيدة الرجوع إلى الجزء الأول ص٣٥٥ من «يتيمة الدهر».

○○○○○

العشق سرّه وعلانيته

لا يصل قلم كاتب إلى نهاية لوصف العشق وقضايا العشاق، وذلك لعدة أسباب منها تعدد طرق العشق وتنوع مسبباته. أما الخوض في البحث عن تاريخ نشأته فإنه يجرنا مع مجرى التاريخ إلى ضرورة البحث عن أسباب قتل أول قتيل على الأرض من ذرية آدم عليه السلام لنجد أن للعشق ضلعاً في ارتكاب تلك الجريمة.

وإذا كما انطلقنا من ذلك العهد القديم وجدنا أن العشق قد أخذ في التأصل في نفوس البشر حتى أصبح في صراع مع العقل؛ لأن العقل يخشى أن يهبط العشق بالنفس إلى مستوى يرفضه منطق العقل، ويتضرر منه الجسد، يقول أبو القاسم التنوخي:

يا سادتي هذه روحي تودعكم
إذ كان لا الصبر يسليها ولا الجزع

قد كنت أطمع في روح الحياة لها
فالآن مذ غبتم لم يبق لي طمع

وحكى أن الأصمعي قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشر العشاق بالله خبروا
إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

فكتبت تحته:

يداري هواه ثم يكتم سره
ويخشع في كل الأمور ويخضع

ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته هذا البيت:

وكيف يداري والهوى قاتل الفتى
وفي كل يوم قلبه يتقطع

فكتبت تحته:

إذا لم يجد صبر لكتمان سره
فليس له شيء سوى الموت ينفع

فعدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً، ومكتوب تحته هذه الأبيات:

سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا
سلامي إلى من كان للوصل يمنع

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم
وللعاشق المسكين ما يتجرع

○○○○○

العشق

العشق وجه تميل إلى مسحه كل يد تلتمس الاغتراف من بحر الهوى، وتتحسن العطف في ملامحه، وهو الوجه الذي تستجلي صادق رقته كل عين.

وتنحفر عليه كل محب، بل هو الشيء الوحيد الذي يتكيف مع النفس ويتفاعل مع الشعور، وهو إلى جانب هذا كله يستقبل ريشة كل فنان، ويخضع لكل لون، ويستجيب لكل رغبة خاضعة لسلطان الهوى، وأكثر الشعراء هم الذين يتغنون في تصوير العشق وإبرازه في صورة مشوقة.

وهم الذين يجيدون تحديد معالمه، بل هم الذين يتلذذون بالعشق داخل إطاره ويستأنسون بمناغاته لأنهم يجدون فيه محركاً لمشاعرهم، ومهيجاً لشاعريتهم وهو ملهم لكل قول يسيل رقة وعذوبة في ميدان الغزل، والذي يستعرض أقوال الشعراء في العشق يجد من الوصف لحالته وتأثيره العجب العجاب.

ولقد شدني إلى كتابة هذا الموضوع أحد أولئك الذين يجددون وجه العشق كلما عفت عليه السنين، أو غفلت عنه يد العناية أو استبد بالتعبير عنه لون من الشعر الحر الذي أصبح كالبثور القبيحة في وجه الحسناء.

ومعالي الدكتور الشاعر إبراهيم محمد العواجي قد حرك ساكناً في ميدان العشق ـ وهيج شعوراً منطفئاً بقصيدته ـ جذوة العشق التي ألقاها في نادي مكة الأدبي، فجاءت مجددة لصدى التعبير الأصيل عن واقع



العشق الذي كنا نقرأه كتراث ضارب في عمق التاريخ. يقول العواجي:

أرى الحياة بدون الحب باردة
صقيعها يقتل الإحساس والطربا

لا تطفئ النار يا هذا فلو عرفت
عيناك لون الهوى لن تطفئ الحطبا

فزد لظاها سعيراً إن بي ظمأ
الصب لا يرتوي حتى ولو شربا

لو ذقت مثل صباباتي ولوعتها
لأصبح الثلج من نجواك ملتهبا

وصار فصل الشتا صيف تظلله
كواكب أصبحت في ليله شهبا

هذا هو العشق لولا العشق ما صدحت
بلابل الشعر تحي الصب والأدبا

ولا رسمت وشوم الحب خالدة
تزين الحلم والحرمان والحقبا

ولا عرفنا جنون العشق من زمن
ولا افتدى فارس أرضاً ولا وهبا

ooooo

الغبن في النساء

روى أبو علي القالي في كتابه «الأمالي»، أن أعرابياً أنشد:

أيا عمرو كم من مهرة عربية

من الناس قد بليت بوغد يقودها

يسوس وما يدري لها من سياسة

يريد به أشياء ليست تريدها

مبتلة الاعجاز زانت عقودها

بأحسن مما زينتها عقودها

خليلي شدا با العمامة واحزما

على كبد قد بان صدعاً عمودها

خليلي هل ليلى مؤدية دمي

إذا قتلتني أو أمير يقيدها

وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل

قتلت ولم يشهد عليها شهودها

ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا

إذا لم يكن صلباً على البري عودها

نظرت إليها نظرة ما يسرني

بها حمر أنعام البلاد وسودها

وسواء كان يقصد ذلك الأعرابي بقوله هذا مهزة حقيقية، أم أن

قوله يحتاج إلى تأويل يكون مرجعه المرأة العربية الأصيلة التي لها صفات الأنوثة الحقيقية.

وسوف لا أتحدث عما حوته هذه الأبيات على اعتبار أن الأعرابي يقصد بها فرساً؛ لأن الفرس في عصرنا هذا لم تعد تشغل بال الناس كما كانت من قبل حيث استبدلت في الحرب بالدبابة وفي الانتقال بالسيارة والطيارة ولم يصبح لاقتنائها إلا أن يكون اعتزازاً بماضيها، ورمزاً لأفعالها، واستذكاراً لفرسانها، ليس إلا.

أما المرأة فإن الحديث عنها لا ينتهي في أي مجال من المجالات التي لها فيه تحرك ووجود، والرجال لا يحصل بينهم تغابن إلا في النساء، والعكس كذلك.

والبيت الأول من تلك الأبيات هو الذي دعاني إلى ذكر ظاهرة غريبة لا أعلم سراً لوجودها في الحياة الاجتماعية، وهي أنه عندما يدور الحديث بين الرجال عن النساء، ومن هو الرجل المحظوظ الذي وفق في الزواج من المرأة التي تتوفر فيها الشروط التي يتمناها الرجل.

نجد الرجل الأقل شأناً، بل الذي يأتي في الطبقة التي تأخذ تقديراً أقل من المتوسط في الفكر والعلم، والقوة والعقل والإرادة، والذكاء والدهاء في أول القائمة، بينما يمني بالغبيات والحمق واللسنات والدميمات، الأبطال وأصحاب العلم والمعرفة وأهل الفطنة والنجابة، إلا ما قل منهم، فما هو السر في ذلك؟ هذا ما لا أستطيع الإجابة عليه.

○○○○○

السمع حاسة فقدها يسبب العزلة!!

يقول عوف بن محلم الخزاعي:

إن الثمانين وقد بلغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وبدلنني بالشطاط انحسناً
وكنت كالصعدة تحت السنان

وبدلنني من زماع الفتى
وهمتي هم الجبان الهدان

وقاربت مني خطاً لم تكن
مقاربة وثنت من عنان

وأنشأت بيني وبين الورى
عنانة من غير نسج العنان

ولم تدع في لمستمع
إلا لساني وبحسبي لسان

أدعو به اللّه وأثني به
على الأمير المصعبي الهجان

فقرباني بأبي أنتما
من وطني قبل اصفرار البنان

هذه الأبيات الثمانية من قصيدة قيل أن عوف بن ملحم الخزاعي

قالها ارتجالاً وكانت مناسبتها أن عوفاً دخل على عبد الله بن طاهر فسلم عليه عبد الله فلم يسمع فأعلم بذلك فارتجل تلك القصيدة.

والقصيدة وإن كانت مرتجلة كما ذكر في «الأمالي» - لأبي علي القالي - فهي تفيض بصادق التعبير عما تفعله السنون بالحواس وخاصة منها حاسة السمع الذي يعتبر من أهمها، بل هو في مقدمتها من حيث الأهمية فالناس يقولون لمن ذهب سمعه: فارق الجماعة - أي: لم يعد منهم؛ لأنه فقد الحاسة التي تربطه بهم عن طريق الاستقبال -.

قال أبو معاذ عبدان الخولى المتطبب: دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج، فلما أخذنا مجالسنا، أتى رسول المتوكل إليه، فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل، ثم أقبل علينا، فقال: ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث، وأكثر ما أشكو الثمانون، ثم أنشد الأبيات المتقدمة.

○○○○○

أأخــي

يستعذب بعض الشعراء أحياناً بعض العبارات أو الكلمات التي يكون لها وقع خاص حينما ينطلق به هاجس الشعر إلى آفاق بعيدة يحلو له ارتيادها على أجنحة بعض الكلمات التي يعشق تكرارها. ويرى أنها بمثابة الزند الذي يورى الشرر الذي يولد الحرارة في كل بيت تتصدره.

والكلمة إذا تكررت ولم تكن كذلك، أي لم تكن مصدر تشويق وممغنطة للكلمات التي تجر أذن السامع فعدمها أفضل بكثير من وجودها بل ربما تكون سبباً في إصدار الحكم على القصيدة بالسماجة والسذاجة ورداءة التعبير.

لكن الشاعر الذكي يوجد في البيت الذي تتصدره جواً يضفي عليها الملاحة والحسن وطلب الإستزادة منها.

كيف لا وهذا أبو العتاهية وهو أحد أعلام الشعر قد نهج هذا النهج في بعض مطالع أبيات قصائده فكرر كلمة «أأخي» بكل حذر وفطنة تجنب القارئ الملل حيث أتى بالصيغة التي تعشقها الأذن، وملحها بالتصفير الذي يحقق الاندفاع إلى الرغبة في استماع ما بعدها من عبارات، يقول:

أأخــي إن الــمـــال إن قــدمــتــه
لـك لـيـس إن خـلـفـتـه لـك مـالا

أأخــي كــل لا مــحــالــة زائــل
فــلــمــن أراك تــثــمــر الأمــوالا



أأخي شأنك بالكفاف وخل من
أثرى ونافس في الحطام وغالى

أأخي إن المرء حيث فعاله
فتول أحسن ما يكون فعالا

أأخي من عشق الرئاسة خفت أن
يطغى ويحدث بدعة وضلالا

أأخي إن أمامنا كرباً لها
شغب وإن أمامنا أهولا

أأخي إن الدار مديرة وإن
كنا نرى إدبارها إقبالا

أأخي لا تجعل عليك لطالب
يتتبع العثرات منك مقالا

○○○○○

باني الأهرام يتحدى من يهدمها

لا يختلف اثنان في عظمة بناء الأهرام، كما لا يختلف اثنان في قدم عهد بنائها.

لكن الاختلاف حصل في تحديد زمان بنائها إذ لم يعرف حتى الآن متى بنيت كما اختلف في أسماء المقبورين فيها، وسوف أذكر شيئاً من ذلك في موضوع آخر إن شاء الله.

أما عظمة بناء الأهرام فإن المرء يقف أمامه وكله عجب وتأمل في كيفية الحضارة التي كانت سائدة في العصر الذي بنيت فيه.

ويزيد تعجب المرء من بنائها لهجة التحدي التي نقلت عن بناتها وذلك بما قيل عن الأقباط أنهم ذكروا في كتبهم أن في الأهرام كتابة منقوشة تفسيرها بالعربية: «أنا سوريد الملك بنيت الأهرام في كذا وكذا وتممت بناءها في ست سنين، ومن أتى بعدي وزعم أنه مثلي فليهدمها في ستمائة سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البناء، وأني كسوتها عند فراغها بالديباج فليكسها بالحصر».

وقال الزمخشري بعد أن وصف هرما الجيزة وكيفية بنائهما وارتفاعهما أنه منقور فيها بالمسند سحر وطلسم وطب فيه: «إني بنيتهما فمن ادعى قوة في ملكه فليهدمها فإن خراج الأرض لا يفي بهدمها. ولما دخل المأمون مصر ورأى الأهرام، أحب أن يعلم ما فيها فأراد فتحها، فقيل له: إنك لا تقدر على ذلك. فقال: لا بد من فتح شيء منها، ففتحت له الثلمة المفتوحة إلى الآن بنار توقد وخل يرش وحدادين يحدون الحديد ويحمونه، ومناجيق يرمى بها. وأنفق عليها مالاً

عظيماً حتى انفتحت فوجد عرض الحائط عشرين ذراعاً ولما انتهوا إلى آخر الحائط وجدوا خلف النقب مطمرة من زبرجد أخضر فيها ألف دينار. فقال المأمون: ارفعوا إليّ حساب ما أنفقتم على فتحها فرفعوه فإذا هو قدر الذي وجدوه لا يزيد ولا ينقص. قالوا: ولما ملك أحمد بن طولون مصر، حفر على أبواب الأهرام فوجدوا في الحفر قطعة مرجان مكتوباً عليها سطوراً باليوناني، فأحضر من يعرف ذلك القلم، فإذا هي أبيات شعر فترجمت فكان فيها:

أنا من بنى الأهرام في مصر كلها
ومالكها قدماً بها والمقدم

تركت بها آثار علمي وحكمتي
على الدهر لا تبلي ولا تتثلم

وفيها كنوز جمة وعجائب
وللدهر لين مرة وتهجم

وفيها علومي كلها غير أنني
أرى قبل هذا أن أموت فتعلم

ستفتح أقفالي وتبدو عجائبي
وفي ليلة في آخر الدهر تنجم

ثمان وتسع واثنتان وأربع
وسبعون من بعد المئين فتسلم

ومن بعد هذا جزء تسعين برهة
وتلقى البراني صخرها وتهدم

تدبر فعالي في صخور قطعتها
ستبقى وأفنى قبلها ثم تعدم

لا أحد يعرف من بنى الأهرام

ذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» جملة من الأقوال التي التمس أصحابها معرفة بناة الأهرام، فقال أحدهم: إنها بنيت في زمن شداد بن عاد، وقال: قيل أن الذي بنى الأهرام سوريد بن سلهوق بن شرياق، زاد المقريزي في المواعظ والاعتبار، فقال: ابن توميدون بن بدرسان بن هوصال أحد ملوك مصر قبل الطوفان. وسبب بنائها يرجع إلى رؤيا رآها سوريد، وحكاية الرؤيا طويلة وهي موجودة في المرجعين اللذين ذكرتهما. ويروى عن صاحب «المرآة»، قوله: إن هناك اختلافاً فيمن بنى الأهرام.

إذ قيل: يوسف، وقيل: نمرود، وقيل: دلوكة الملكة، وقيل: بناها القبط قبل الطوفان، وكانوا يرون أنها مأمن فنقلوا أموالهم وذخائرهم إليها.

والقبط يزعمون أن هرمي الجيزة ومصر والهرم الملون قبور. فالهرم الشرقي فيه سوريد الملك والهرم الغربي فيه أخوه هرجيب. والهرم الملون فيه أمريبون ابن هرجيب.

أما الصائبة فتزعم أن أحدهما قبر شيث، والآخر قبر هرمس، والملون قبر صاب بن هرمس وإليه تنسب الصائبة، وهم يحجون إليها ويذبحون عندها الديكة والعجول السود.

ويروى عن عبد الله بن سراقة قوله: أنه نزلت العماليق مصر بعد أن أخرجتها جرهم من مكة فبنت الأهرام، واتخذت بها مصانع وبنت بها العجائب فلم تزل بمصر حتى أخرجها مالك بن ذعر الخزاعي.

وذكر ابن المتوج، واسمه محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيري في كتابه «عجائب مصر» أن عدد الأهرامات ١٨ هرماً منها ٣ بالجيزة، وعند مدينة فرعون يوسف هرم دوره ثلاثة آلاف ذراع، وعلوه سبعمائة ذراع، وعند مدينة فرعون أهرام أخرى أحدها يعرف بهرم ميدوم؛ كأنه جبل، وهو خمس طبقات، والطبقة العليا كأنها قلعة على جبل.

وللشعراء في ذكر الأهرام أقوال كثيرة فمنهم ظافر الحداد الذي يقول:

تأمل هيئة الهرمين وانظر
وبينهما أبو الهول العجيب

كعمار يبتن على رحيل
لمحبوبين بينهما رقيب

وماء النيل بينهما دموع
وصوت الريح عندهما نحيب

ودونهما المقطم وهو يحكي
ركاب الركب أبركها اللغوب

ومنهم الساعاتي الذي يقول:

ومن العجائب والعجائب جمة
دقت عن الأكثار والأسهاب

هرما قد هرم الزمان وأدبرت
أيامه وتزيد حسن شباب

لله أي بنية أزلية
تبغي السماء بأطول الأسباب

وكأنما وقفت وقوف تبلد
أسفاً على الأيام والأحقاب

صمود الأهرام أمام يد التعرية!!

تعد أهرامات مصر من عجائب الدنيا التي لها عمق في التاريخ، وعظمة في الهيئة وقوة في البناء، وتميز في الشكل الذي لا نظير له في الدنيا. ولهذا فإنه ما قرأ أحد عنها إلا وأسره الشوق إلى رؤيتها.

والذي يتتبع أخبار زوار مصر على مر العصور يجد أنهم يستفتحون أحاديثهم عن شعورهم بمعالم مصر وحضارتها العريقة بوصف الأهرامات، وإظهار التعجب من بنائها الصامد أمام جميع وسائل التعرية التي تغير مع مرور الزمن معالم الأشياء وكيف أنها لم تتضعضع أمام تقلبات الأحوال الجوية عبر آلاف، آلاف السنين.

وأمام تلك الأهرامات كم وقف من سائح مشدوهاً وكم من رحالة عاد متسائلاً، متى وكيف تم بناء هذه العجائب.

وغير ذلك الاستغراب وتلك التساؤلات كم من قلم بحث في سر صمودها وناقش في كنه بنائها، وتحرى تاريخ إنشائها فلم يجد إلا ما سطر الأوائل وما ألحقه المتأخرون من استقراءات وبعض النتائج العلمية التي حققتها الحفريات التي تقوم بمحاولة إكتشاف الآثار المزامنة للأمة التي بنت تلك الأهرامات.

وقد ذكر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» أن صاحب كتاب «مباهج الفكر» قال: ومن المباني التي يبلى الزمان ولا تبلى، وتدرس معالمه، وأخبارها لا تدرس ولا تبلى، الأهرامات التي بأعمال مصر.

وهي أهرام كثيرة أعظمها الهرمان اللذان بجيزة مصر.



قال السيوطي: قال القاضي الفاضل: الهرمان فرقد الأرض، وكل شيء يخشى عليه من الدهر إلا الهرمان فإنه يخشى على الدهر منهما.

قال المقريزي في كتابه «المواعظ والاعتبار»: وأخذ هذا القول الفقيه عمارة اليمنى، فنظمه في قوله:

خليلي ما تحت السماء بنية
تماثل في اتقانها هرمي مصر

بناء يخاف الدهر منه وكل ما
على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر

تنزه طرفي في بديع بنائها
ولم يتنزه في المراد بها فكري

ويقول آخر:

انظر إلى الهرمين واسمع منهما
ما يرويان عن الزمان الغابر

وانظر إلى سر الليالي فيهما
نظراً بعين القلب لا بالناظر

لو ينطقان لخبرانا بالذي
فعل الزمان بأول وبآخر

ويقول أبو الفضل أمية بن عبد العزيز الأندلسي:

بعيشك هل أبصرت أحسن منظراً
على ما رأت عيناك من هرمي مصر

أنافا بأعنان السماء وأشرفا
على الجو إشراف السماك أو النسر

تسجيل الخاطرة

الخواطر التي تخطر بالبال كثيرة لا حصر لها؛ لأنه بمجرد إطلاق الإنسان فكره للتمعن فيما حوله، أو فيما قد سمعه أو ما سبق أن شاهده تتوارد إليه خواطر كثيرة تريد التعبير عن كل ما توقف تفكير إزاءه، وأدركت عينه معالمه.

والخواطر تختلف باختلاف أصحابها. فالأديب من المزارعين والتجار والبحارين وجميع أهل الحرف اليدوية تأتي إليهم خواطر تصور أهم ما لفت أنظارهم في ميدان عملهم، والكاتب والمفكر والشاعر تأتي إليهم خواطر تتطلب التوثيق والقيد والإثبات. ولهذا فهم أكثر الناس اهتماماً بتدوين الخاطرة ورصدها، لأنهم يدركون أنه إذا لم تسجل على الورق ذهبت أدراج الرياح، وبقي صاحبها في ندم وحسرة على فواتها.

قال الحسن اليوسي في كتابه «المحاضرات»: زعموا أن حسان بن ثابت بينما هو في أطمة وذلك في الجاهلية، إذ قام في جوف الليل فصاح: يا للخزرج. وقيل أنه صاح: يا بني قيلة، يا بني قيلة فجاءه الأنصار يهرعون إليه، وقد فزعوا فقالوا: مالك يا ابن الفرعية؟، قال: بيت قلته فخفت أن أموت قبل أن أصبح فيذهب ضيعة خذوه عني. فقالوا: وما قلت؟، فأنشد:

ربَّ حلم أضاعه عدم المال

وجهل غطى عليه النعيم

وهذا البيت الذي تمخضت عنه خاطرة ليل من ليالي حسان يستحق أن يوقظ من النوم لحفظه وتقييده كل من حوله، وأن لا

يستغرب من ذلك أحد فهو بيت ينز بالحكمة المتمخضة عن التجربة، ثم أنه ليس بمستغرب على شاعر رسول الله ﷺ، فكم له من أبيات وكم، وكم.

وقد وجدت هذا البيت ضمن قصيدة لحسان يذكر فيها عدة أصحاب اللواء يوم أحد.

وهذا يعني أنه قاله في الإسلام، وليس كما ذكره اليوسي. وبعده يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ما أبالي أنب بالحزن تيس
أو لحاني بظهر غيب لئيم

وقد جاء في القصيدة نفسها أبيات غزل جميلة منها قوله:

منع النوم بالعشاء الهموم
وخيال إذا تغور النجوم

من حبيب أصاب قلبك منه
سقم فهو داخل مكتوم

يا لقوم هل يقتل المرء مثلي
واهن البطش والعظام سؤم

همها العطر والفراش ويعلو
هالجين ولؤلؤ منظوم

لو يدب الحولى من ولد الذ
ر عليها لأندبتها الكلوم

لم تفقها شمس النهار بشيء
غير أن الشباب ليس يدوم

لك الحمد

ضم «ديوان الأمير الصنعاني» قصيدة صدر معظم أبياتها بهذه العبارة ـ لك الحمد حمداً ـ ومناسبتها تضمنها نص مقدمة القصيدة وهو قوله: لما درسنا في الجامع الكبير في التفسير على الكرسي تدريساً عاماً ممزوجاً بالوعظ والتذكير من سنة ١١٥٤هـ، وانتشر منه خير كثير من تعليم الشرائع وإشاعة السنّة النبوية، وكان يحضره أمم من الناس لا يحصون من كبير وصغير. وأقبل الناس على الطاعات، وعمرت بيوت الله بالصلوات في أوقاتها والجماعات.

أغاظ إبليس ذلك الخير العام، فألقى في قلوب جماعة بأن يسعوا بنا إلى الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم رحمهما الله.

وقالوا له: إنا نحرص على مخالفة مذهب الآل. وفعلوا إليه رسائل فيها زور وبهتان وجهل وهذيان. وكاد أن يميل إلى قلوبهم، ووقع بيننا وبينه مناظرة فعصمه الله تعالى وظهر له الحق، كما ظهر لكل أحد.

غير من ملئ قلبه بالغل والحسد ومزق إحدى الرسائل بيده، وأمرني أن أجيب على الأخرى. فأجبت عليها برسالة سميتها «السهم الصائب في نحر المقول الكاذب».

وحين دفع الله شرهم، قلت هذه الأبيات حمداً لله تعالى على إنعامه وأفضاله، وعلى رده كيد الكائدين، واستمرار انتفاع العباد وقوة أمر الدين:

لك الحمد حمداً باللغات جميعها

محامد صدق تعجز الأنس والجنا



لك الحمد حمداً طيب اللفظ والمعنى
لك الحمد حمداً دائماً أبداً منا

لك الحمد حمداً بالعبارات كلها
حقائقها ثم المجاز وما يكنى

لك الحمد حمداً بالدلالات كلها
مطابقة والالتزامات والضمنا

لك الحمد حمداً يعجز الخلق عده
ولن يستطيعوا بعد ذاك له وزنا

لك الحمد حمداً يملأ الأرض والسماء
وما فيهما والبحر والسهل والحزنا

لك الحمد قبل الحمد والحمد بعده
لك الحمد حمداً لا يزول ولا يفنى

لك الحمد حمداً يشمل الحمد كله
فيستغرق الأقصى من الحمد والأدنى

والقصيدة طويلة فمن أراد قراءتها فإنه واجدها في «ديوان الأمير الصنعاني» الذي أشرت إليه آنفاً.

○ ○ ○ ○ ○

عدم إظهار الحزن على الزوجة
من مخلفات الجاهلية

تغيظ نفس الرجل من الحزن، ويعصر الألم قلبه، ويجهش بالكباء، وتسفح عينه الدمع جارياً على خده عندما يتخرم الموت قريباً له أو صديقاً، أوجاراً أو أي من معارفه.

ولا يرى في ذلك حياء، وإنما الحياء والخجل أن يبكي على زوجته عند فقدها، ولا أعرف سبباً يدعو لإظهار الحزن على الأقرباء والأصدقاء والمعارف وإخفائه على الزوجة وهي التي أحق بالحزن عليها من أولئك، وهل ألم يصيب النفس ويوجع القلب مثل ألم فقد الزوجة ورحيلها عن الدنيا مخلفة ذكريات حب وود وشفقة وحنان وتلطف وتاركة أطفالاً لا يزالون محتاجين إلى عطف الأمومة وحنانها.

والذي يقف وقفة تدبرية أمام هذا الموضوع لا بد أن يعد، عدم إظهار الحزن والتظاهر بأن لا مبالاة بفقد الزوجة، أمراً من مخلفات الجاهلية التي لا تقيم للمرأة وزناً ولا ترى لها أهمية في الحياة. ولربما قال قائلهم: كيف يحزن الرجل على من له بديل؟ إنما الحزن على من ليس له بديل كالأب أو الأخ أو الصديق أو القريب.

ولعل في رثاء جرير لزوجته ما يدل على ذلك، ويوضح التكتم على الحزن على الزوجة، فهو ـ وأعني بذلك جريراً ـ يقول في أحد أبيات قصيدته التي رثى بها زوجته أم جزرة: «لولا الحياء لعادني استعبار».

ومفهوم كلمة «لولا» في اللغة ومدلولها في النحو يعطينا الدليل على أنه لا يحسن بالرجل أن يحزن على امرأته.



ومن تلك القصيدة التي تبلغ نحواً من مائة وسبعة عشر بيتاً قوله:

لولا الحياء لعادني استعبار
ولزرت قبرك والحبيب يزار

وقوله:

فجزاك ربك في عشيرك نظرة
وسقى صداك مجلجل مدرار

ولهت قلبي إذ علتني كبرة
وذوو التمائم من بنيك صغار

وقوله:

كانت مكرمة العشير ولم تكن
يخشى غوائل أم حزرة جار

وقوله:

صلى الملائكة الذين تخيروا
والصالحون عليك والأبرار

وعليك من صلوات ربك كلما
نصب الحجيج ملبدين وغاروا

وقوله:

كأن منزلة لها بجلاجل
وحي الزبور تجده الأحبار

وقوله:

لايلبث القرناء أن يتفرقوا
ليل يكر عليهم ونهار

رثاء زوجة!!

يكثر في الشعر العربي موضوع الرثاء بصورة عامة. وأعني بعموم الصورة رثاء كل عزيز يرحل من الدنيا، سواء كان أب أو أخ أو أخت أو ما إلى ذلك من الأقارب والمعارف والأصدقاء.

وقد أخذ الشعر الرثائي مساحة كبيرة من رقعة الأدب، واختص بجزء كبير منه لكننا مع هذا الكم نجد منه تقصيراً أمام فئة لها أهمية ومكانة تؤهلها للأولوية في الرثاء ومكان الصدارة في الندبة والتفجع وهذه الفئة هي لزوجات، حيث لا نجد في شعر الرثاء ما يمكن مقارنته بما رثي به الآباء والأخوة والأصدقاء وغيرهم من ذوي القربى والمعارف والجيران.

ولا أعرف سراً لذلك إلا ما تقدمت الإشارة إليه في موضوع سبق تحت عنوان «عدم إظاهر الحزن على الزوجة... من مخلفات الجاهلية»، لكن عصرنا هذا وما قبله قد تحرر من تلك التحرجات التي لا مبرر لها من الناحية الاجتماعية، ولا أصل لها في الأعراف الأدبية.

ومع هذا التحرر لم نقرأ شعراً رثائياً صادقاً من زوج في زوجته إلا النزر اليسير الذي لا يقاس بما يرثى به غيرها من الناس.

ومن تلك النزر اليسير ما قرأته مؤخراً في المجلة «العربية» العدد ١٤٤، لشهر محرم سنة ١٤١٠هـ، للشاعر السعودي محمد سعد الدبل الذي رثى زوجته رحمها الله رثاءً يثبت فيه وفاءه لها، فقد أظهر حسن سيرتها الحميدة وأخلاقها النبيلة.



وإنني أتمنى على الشعراء الذين يفقدون زوجاتهم أن يذهبوا مذهب الشاعر الدبل في رثائيته لزوجته.

يقول الدبل من قصيدة طويلة تبلغ نحواً من اثنين وثلاثين بيتاً مطلعها:

مما يسلي فؤادي يا ابنة الخالي
كرامة الله في فردوسه العالي

ومنها قوله:

حللت أرضاً وما أخبرت مسبقة
الأمر لله في حكم وإنزال

أما ثراك فمسك لا يشارعه
نفح من الطيب في روح وإعلال

نشر الخزامي على قبر أحاط به
ظل ظليل على حافاته سالي

ومنها قوله:

وكيف لا تبكين العين غالية
لما أقلت على حدباء مطوال

الوذ بالصبر والعينان تمنعه
هما بحال وصبري عز في حال

ومنها قوله:

لولا صغيران يحتاجان راعية
ما رمت بعدك بنت العم والخال

ولا اصطفيت مدى الأيام صاحبة
في خلوة وانصراف بعد إقبال

التوطئة

تطالعنا بعض المؤلفات بمقدمات وتوطئات شيقة تفتح النفس وتستميل القارئ بل تشده إلى الدخول في صفحات الكتاب وتصفحه. وما ذاك إلا أن مؤلفي تلك الكتب كانوا على فطنة وذكاء، وإلمام بحسن استقطاب القراء.

ولو قارنا بين مقدمات كتب التراث القديمة وبين ما نتلقاه من إصدارات جديدة لوجدنا الفرق شاسعاً في أمور كثيرة أهمها: جودة الأسلوب للمتقدمين، وإجادتهم لمعنى التوطئة، تلك الإجادة التي نلحظها في اختيار العبارات الجذابة، وبسط موضوع الكتاب وفقاً لمادته في عبارات وجيزة.

والكثير منهم وأعني المؤلفين القدامى، نجده يطعم مقدمة كتابه بشواهد من الشعر المؤثر الذي يمثل مفتاحاً يدخل به القارئ إلى موضوع الكتاب. أما مقدمات المؤلفات الحديثة، فإننا نلمس الحرص الواضح على حث القارئ على الدخول في الكتاب بصورة إعلان وطلب بأسلوب يفسده التصنع في صياغة الكلمة، التي يقصد بها دفع القارئ إلى تصفح ذلك الإصدار، هذا إذا كانت المقدمة بقلم صاحب الإصدار. أما إذا كانت المقدمة بقلم شخص له شهرة أدبية فإن ذلك يعني أن لدى صاحبه قناعة بأنه ليس على المستوى الذي يرغبه القارئ وأنه لا بد من التماس مقبلات ومشهيات له، كالإهداء وجعل المقدمة بقل كاتب أو أديب معروف.

وقد أعجبتني مقدمة لكتاب اسمه «المحاضرات» وهي عبارة عن



أبيات من الشعر لمؤلفه: الحسن بن مسعود بن محمد بن علي بن يوسف اليوسي، ومن تلك الأبيات قوله:

زهر من العلم والعرفان مؤتلق
في الطرس والنفس يستهدي بألوان

وقوله:

للّه در كرام فاز فائزهم
قدماً بجلب درور منه ملبان

وبابتناء مبان منه سامية
لا يبتنى مثلها في دهره الباني

هذا هو المجد في الدارين والشرف
المحصن الذي ماله في فضله ثان

فاعكف عليه مع الآناء معتنياً
ولا يكن لك في تطلابه ثان

واعلم بأنك لن تحظى بصهوته
حتى تجوز المدا في كل ميدان

وتبذل النفس بعد المال مطرحاً
لكل ترفيه أرواح وأبدان

وتغترب برهة في كل آلفة
من ذات قربى وأوطان وإخوان

○○○○○

مروحة السعف

قبل انفجار الثورة الصناعية، كان الناس في الجزيرة العربية يصنعون المراوح من خوص النخل، وصنعها يتم بمداخلة الخوص بعضه ببعض بطريقة شبيهة بالنسج وحجمها يتراوح ما بين ثلاثين سنتمتر إلى عشرين سنتمتر طولاً وعرضاً، وربما تكون مستطيلة الشكل، وتثبت من أحد أضلاعها في جريدة من جرائد أعسب النخل تشق من أحد أطرافها بقدر طول المروحة.

وربما ثبتت في عود من الخيزران إن وجد، والمروحة في جهتنا في نجد تسمى «المهفة». والنساء هن أكثر من يقوم بصنع المهفة، وهن يتفنن في صنعها حيث يقمن بصبغ الخوص الذي تحاك منه المروحة بأصباغ مختلفة الألوان.

ويعرف نسجها أو حياكتها في نجد بـ «السف»، فيقال: فلانة أو فلان يجيد ـ سف المهاف ـ.

والمروحة الخوصية كان لها دور في حياة الناس وقت الصيف، ويلمس الإنسان أهميتها من مفعولها الذي يخفف وطأة الحر. ولهذا فإن المرء عندما يدخل غرف الجلوس والمساجد يجد المراوح مبثوثة في كل مكان منه.

والاستدلال على أهميتها في العصور السالفة يتبينه كل قارئ لكتب التراث.

قال الخالديان ـ وهما مؤلفا كتاب «التحف والهدايا» ـ : أهدى محمد بن هاشم الخالدي إلى عمرو بن اصطفن الكاتب مروحة طريفة، وكتب معها أبياتاً منها:



أيا عمرو يا بن العلي والحسب
ومن حل في المنصب المنتخب

بعثت إليك أطال الإل
ه عمرك ما طال عمر الحقب

بمروحة راحة للقلوب
لها نسبان إذا تنتسب

ففي سعف النخل نخل النبيط[1]
وفي خيزران غياض العرب

ومنها قوله:

ترد التشارين[2] في حجة
من القيظ نيرانها تلتهب

ومنها قوله:

وتصلح للضرب ضرب الدلال
دلال الحبيب إذا ما عتب

وتومي بها في عروض الكلام
إذا ما احتبيت لنشر الخطب

ومن بعد ذا كله فاسمك ال
مبارك في ظهرها قد كتب

---

(١) النبط: جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقين. سموا بذلك لكثرة النبط عندهم وهو الماء.

(٢) التشارين جمع تشرين. وهما شهران من شهور السنة الميلادية بين سبتمبر وديسمبر.

فـي

والسعادة لها معان كثيرة، ولها أوصاف أكثر، فهي تكون حيناً معنى وتكون حيناً مادة مفهومة، وحيناً تأتي من عدة وجوه. ولهذا يصعب تحديد مؤشرها عن طريق الرؤية فقط، لأنها تكون في الزواج، وتكون في الفقر، وتكون في الغنى. ولا أذهب بعيداً من أجل سياق بعض الأمثلة الحركية التي يحسبها بعضهم علامات سعادة وما هي في الحقيقة إلا سعادة، في شكلها وليست في مضمونها أو معناها أو حقيقتها.

يقول الشاعر الدكتور يوسف القرضاوي في قصيدة طويلة عنوانها الرئيسي: «السعادة»، وقد قسمها إلى ما يشبه الفصول، ففيما يختص بالتوهم في أن السعادة تبدو في الشكل أو المظهر كأن يحكم على ساكن الطبع أو الغنى أو المتهندم بأنه سعيد وأن غير أولئك قد هربت السعادة من ساحاتهم وتركتهم في شقاء ونصب، قد عقد القرضاوي فصلاً من قصيدة «السعادة» وجعل عنوانه: (السكون والخمول)، وصدر أكثر من ثمانية أبيات متوالية فيه بحرف «في». يقول:

قالوا: السعادة في السكون
وفي الخمول وفي الخمود

في العيش بين الأهل لا
عيش المهاجر والطريد

في لقمة... تأتي إليـ
ـك بغير ما جهد جهيد

في المشي خلف الركب في
دعة وفي خطو وئيد

في أن تقول كما يقا
ل فلا اعتراض ولا ردود

في أن تسير مع القطيع
وإن تقاد ولا تقود

في أن تعيش كما يرا
د ولا تعيش كما تريد

قلت الحياة هي التحرك
لا السكون ولا الهمود

ومن هذا المفهوم نتبين أن السعادة ليست مظهر، وإنما هي شيء يستقر في النفس ويرتاح له الضمير وترضى به الحواس وتتفاعل معه تفاعلاً يشكل ما يعرف بالسرور والرضا عن الحياة في شتى صورها.

○○○○○

الجبابرة... والعباقرة

الناس ينقسمون بحكم ما جبلوا عليه إلى أقسام ينضوي تحت كل قسم منها، ما تجانست وتشابهت وتماثلت طباعه.

ويكاد ذو الخبرة ومن له اهتمام بدراسة طبائع الناس أن يعرف سلوك الجماعة بمجرد معرفة طبع واحد منهم.

استناداً إلى أن الائتلاف لا يحصل إلا إذا كان هناك تجانس في مزايا النفس والعادات والتقاليد. حتى لربما حصل ذلك التقسيم فيما ليس له علاقة بالطبع، وإنما لوجود قاسم مشترك لا علاقة له بالعادات والتقاليد؛ كالفقر مثلاً، فهو يجعل الفقراء يلتفون حول بعضهم ليتبادلوا في ذلك الالتفاف شكواهم من الفقر، ذلك الفقر الذي شكلهم في رابطة جمعتهم ووحدت فيما بينهم وجعلتهم صفاً واحداً، وكذلك الغنى فإنه يجمع الأغنياء ليبحثوا وسائل تطوير تجارتهم، وأساليب تعاملهم ووسائل تكوين اتحادهم.

وكذلك الشأن في بعض التخصصات العلمية، والعملية، والمراكز الريادية، فإنها تؤلف بين أصحابها. فالجبابرة من الرياديين مثلاً، ترى لهم تجمعاً يقوم على مبدأ حب التسلط فيلتف حوله أصحاب النزعات العنادية التي تميل إلى السيطرة والقسر وذلك بحكم تجانس الرغبة في نوع السلطة وتشابه أغراض الهوى النفسي.

ولقد وقف، أستاذ جيل عصره المشهور بأدبه وثقافته وعلمه وشعره، الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله، وقفة بديعة مع ما تلفظه شفاه الفئات التي توحد بينها مزية أو مزايا معينة، فأشار إلى ما



كان ينادي به اتحاد الجبابرة وما كان يدعو إليه اتحاد العباقرة. وذلك بقوله من قصيدة ذات مقاطع اقتصر على نقل ما يخص الجبابرة والعباقرة، يقول:

فنادى جبابرة العالمـ
ين نداء المدل بأمر جلل
لنا وحدنا صولجان العلا
ومنا الرجاء ومنا الوجل
إذا ما نطقنا توالت خطو
ب وصالت شعوب ودالت دول
وفي همسة تنجلي فتنة
وفي مثلها يتدانى الأجل
ونادى العباقرة الملهمو
ن صحاح المعاني فصاح الجمل
لنا وحدنا جائزات الشفا
ه إذا اختلفت سبلها في الجدل
فمنا الجمال ومنا الهدى
ومنا العزاء ومنا الجذل
وبالنطق يكتمل الآدمـ
ي وفينا تكامل حتى اكتمل

○ ○ ○ ○ ○

الشباب عرس وقته ثواني

ما أفتقد المرء شيئاً كان يعايشه إلا وخالجه أمل بأن يعود إليه مرة ثانية، إلا شيء واحد وهو الشباب، فإنه لا يؤمل رجوعه، ولا ترتجى عودته بل إن نفس المرء لا تحدثه بمصاحبته أو مزامنته مرة أخرى. ولهذا يكثر التأسف على انقضائه وتصرم أيامه، ويكثر توجد الناس الذين بلغوا من الكبر عتياً على ذهابه.

وواقع الحياة وصرف الزمان يثبت أنه ما من أحد من الناس إلا وقافلة الشباب ستخلفه إن طال به العمر وراءها شاكياً ألم المفاصل وضعف البصر والسمع، بل ومتشكياً شكاية يتخللها تمنيات بعودة الشباب وأيامه الحلوة. ولكن أنى له أن تعود وقد حل مكانها من الجسم ما لا يستطاع دفعه ولا مقاومته أو مقاواته.

وكم من الناس من وقف وقفة تأملية حينما رحل عنه الشباب مناجياً نفسه ومسائلاً لها: أين ذاك مني؟ وذاك، وذاك؟. إلى آخر ما كان يعهده في نفسه ثم افتقده.

وكم من الناس من ضرب الأخماس في الأسداس متعجباً بما فعله المشيب به ولا أذهب بعيد في طلب الاستشهاد على فعل الشيب بالشباب، فهذا أحد الشعراء المعاصرين وهو الشاعر نجيب الكيلاني يصور تلك الحالة في إحدى قصائده التي ضمها ديوانه «مدينة الكبائر»، وعنوانها: «ولى الشباب»، وهي قصيدة طويلة نوعاً ما، منها قوله:

ولى الشباب وليس من عاداته

أن يستقر على المدى بمكان

ولـربـمـا آب الـغـريـب لأهـلـه
أما الـشـبـاب فـصـيـغ مـن هـجـران

كالحلم يزهو في القلوب وينمحى
لـكـأن أعـراس الـشـبـاب ثـوانـي

ادعـوه والـذكـرى تـؤرق خـاطـري
أتـرى يـصـيـخ لـدعـوة الـمـتـفـانـي

هـذا الأديـم تـضـجـرت جـنـاتـه
وتـعـمـقـت فـيـه غـصـون زمـانـي

لا الوجه وجهي حين تقبل نحوي
يـومـاً... ولا الـخـدان والـعـيـنـان

شيـئـان ما عيـب البكاء عليهما
فـقـد الـشـبـاب وفـرقـة الـخـلان

من طـال في درب السنين مسيره
أمـسـى أسـيـر الـسـقـم والإذعـان

○ ○ ○ ○ ○

كل يمجد لغته ولكن!!

إن كل منتمي إلى لغة من اللغات لابد أن يطلق لسانه في تمجيدها ورفعة أمرها وعلو شأنها، لأنه يرى أنها هي اللغة التي استطاعت مسايرة الحضارة وترجمت له واقعها. وأنها ذات صلة بماضي أمته بدليل أنها حملت إليه تراث من سبقه ممن كانوا ينتمون إليها.

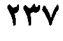
ولا ضير عليه في ذلك، بل إن هذا واجباً عليه وحبها مقترن بحب الوطن؛ لأن الوطن واللغة يمثلان محيط الدائرة التي يعيش بداخلها.

وإذا ما حصل لهذه الدائرة ما يخل بمحيطها فسدت مقاييسها وانعدمت فائدة نقطة مركزها، الذي هو أساس قيامها واستمرار وجودها بشكلها الهندسي المميز.

وشاعر لغتنا العربية يقول:

«ولا خير في من لا يحب بلاده». لكن الذي أود أن أقف عنده في هذا الموضوع، هو إفراد بعض المادحين مديحاً ـ للغته ـ وجعلها هي أم اللغات وأصلها، أو هي التي أصبحت الآن مركز اللغات دون أن يقدم الدليل الواضح الذي يكون مصدر اقتناع.

أما اللغة العربية فهي لا تريد من أي من أبنائها أن يقول عنها شيئاً أو يمجدها، لأنه مهما قال فلن يبلغ بها تمجيده ما بلغه بها القرآن الكريم الذي ختم الله سبحانه وتعالى به الرسالات، وجعلها نقطة نهاية الوحي بين السماء والأرض.





ولهذا فهي ما عجزت يوماً من الأيام عن ترجمة جميع اللغات واستيعابها. وهذه العظمة تجعل أبناءها يجدون متعة في وصفها، سواء كان ذلك نثراً أو شعراً، فمن الشعراء الذين أشادوا باللغة العربية وذكروا جزءاً من مآثرها ومفاخرها ووصفوا جلالها وعلو قدرها؛ الشاعر محمد محمود البزم، إذ يقول:

لنا لغة عن سالف المجد تعرب
فلله ما أبقى معد ويعرب

كستها بنان العبقرية حلية
تميد بها غلب العقول وتطرب

وقد بلغت قدماً بها العرب العلى
وفاقت على كل الأقاليم يثرب

وكانت لسان الحميريين أدهراً
وباهت بها في غابر الدهر مأرب

ولو نال سيف العرب في الغرب شأوه
لزينت كما زينت بها الشرق مغرب

تفرد بالإعجاز والحسن شعرها
فليس له عن مربض الحسن مهرب

يدب دبيب السحر في كل مهجة
ويؤكل حسناً بالضمير ويشرب

زهت في ضفاف الرافدين منيعة
وعزت بها العدواء واختال يثرب

ooooo

لغتنا دوحة الخير

قال الشاعر محمد مصطفى البلخي قصيدة يمجد فيها اللغة العربية ويشيد بمآثرها ومالها من فضل، وما للسانها من تميز على جميع الألسن بالفصاحة، يقول في مطلع تلك القصيدة التي تبلغ عشرين بيتاً:

يا دوحة الخير لا يقلوك ذو خبل

إلا لما فيه من مستقبح العلل

ثم يصفها ـ وأعني بذلك اللغة العربية ـ بما هي أهل له، ويمثّلها بالأم الرؤم التي تحرص على سلامة أبنائها من عبث العابثين، وتسعى لتنزيههم من دنس الدنسين، وقذارة القذرين:

أم رؤم على القرآن تجمعنا

لا نرتضي غيرها في الكون من بدل

ويمضي واصفاً مدى حب أبنائها لها، وذاكراً مكانها من نفوسهم، بل إنه جعلها عيناً وأهلها جفوناً تقيها من السوء:

نحن الجفون حواليها وقد وقعت

في نفس كل أبي موقع المقل

ثم يصب جام غضبه على سعيد عقل الذي كان قد دعا إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية، وقد سماه بدل سعيد «تعيس»، وقد وفق في هذا التبديل لاسم ذلك الذي يحاول هدم اللغة العربية بأفكاره المعادية للغة القرآن. يقول:

بالأمس قام «تعيس» العقل ينصحنا
بدفنها كي نحوز السبق في الدول

أنا لنعلم أن الحقد يلهبه
بدافع من رؤوس الكفر والدجل

ويواصل هجومه المحق على سعيد عقل بنوع من اللوم؛ لأنه - أي سعيد - عربي ودعوته تلك تعد عقوقاً للغة بل تمرّداً عليها. يقول:

لو كان شانئها من غير جلدتنا
لما التفتنا لهذا الزيغ والزغل

إن الذي عقها من سوء فطنته
قد عاش في ظلها دهراً ولم يزل

ثم يؤكد الشاعر محمد بلخي أن سعيد عقل لن يضر اللغة العربية، ولن يضعف من قوتها، ولن يقلل من قيمتها بدعوته تلك؛ لأن الله حافظها بحفظ قرآنه الكريم الذي جاء بلسانها. يقول:

مهما نبحتم فإن اللّه حافظها
بحفظ آياته من كل ذي دغل

○ ○ ○ ○ ○

يا سلعة الرحمن

يا سلعة الرحمن ـ هذه العبارة الطيبة ـ صدّر بها ابن قيم الجوزية جملة أبيات متوالية:

من نونيتة المشهورة والتي تعد من أطول المنظومات حيث بلغت نحواً من خمسة آلاف بيت أو أكثر، وقد وظَّفها ابن قيم في بيان العقيدة السلفية والرد على الملحدين والزنادقة والمبتدعين والمنكرين لصفات الله... وفيها وصف للجنة ونعيمها والنار وجحيمها، وقد قسمت إلى فصول بلغت واحداً وتسعين فصلاً، وقد وجدتها كاملة في عدة مؤلفات، لكن هناك مؤلف حديث ضمها بكاملها بالإضافة إلى قصائد أخرى كالنونية القحطانية ودالية ابن عبد القوي، اسمه «مجموعة القصائد المفيدة» نشرته مكتبة الرياض الحديثة، والغريب في أمر هذه المكتبة أنها لم تشر إلى ناظم تلك القصيدة لا من بعيد ولا من قريب ولم تعرّفه. وكأنما هي لشخص مجهول قال في مقدمتها: «وقد سميتها بالكافية في الانتصار للفرقة الناجية»، ولم يحصل أي تعليق على القائل حتى يعرفه القارئ المستجد أو المبتدئ الذي يجهل أن هذه النونية لابن قيم الجوزية رحمه الله.

ولا أظن أن التعريف بابن القيم يعد أمراً صعباً، فمعظم مؤلفاته التي تشغل حيزاً كبيراً من رفوف المكتبة العربية قد اعتنى كثير من محققيها بذكر نسب ابن القيم، فهذا مثلاً الأستاذ محمد زهري النجار الذي حقق كتاب ابن القيم، «التبيان في أقسام القرآن»، قد ذكر نسب ابن القيم فقال: هو محمد بن عبد الله بن أيوب بن سعد بن جريز

الزرعي ثم الدمشقي، الفقيه الأصولي المفسر النحوي العارف، شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية. كما أشير إلى أنه ولد عام ٦٩١هـ، وتوفي عام ٧٥١ للهجرة.

أما الأبيات التي أشرت إلى أنها جزء من نونية ابن القيم والتي اخترتها على أنها مصدرة أوائلها بعبارة - يا سلعة الرحمن - فهي:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة
بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها
في الألف إلا واحد لا اثنان

يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها
إلا أولوا التقوى مع الأيمان

يا سلعة الرحمن سوقك كاسد
بين الأراذل سفلة الحيوان

يا سلعة الرحمن أين المشتري
فلقد عرضت بأيسر الأثمان

يا سلعة الرحمن هل من خاطب
فالمهر قبل الموت ذو إمكان

يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ
خطاب عنك وهم ذوو إيمان

يا سلعة الرحمن لولا أنها
حجبت بكل مكاره الإنسان

○○○○○

كنزة المنقرية تحسد مية المنقرية

كثير من الشعراء يهم بحب واحدة من النساء، فيأخذ في التغزل بها لا يترك موضعاً من مواضع الجمال في جسدها إلا أشار إليه وصوَّب نظر خياله نحوه ليبدي مفاتنه.

وذو الرمة واحد من أولئك الشعراء، فهو قد هام بحب مي حفيدة الصحابي الجليل قيس بن عاصم المنقري سيد بني تميم بل سيد أهل الوبر كما سماه رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فهي مية بنت منذر بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، وهي التي أطلق ذو الرمة عنان لسانه في وصفها حتى جعلها وحيدة زمانها في الجمال والآداب والخلق والعفة. مما جعل نساء عصرها يبغضنها بتلك الشهرة وذلك التشهير الشريف، ومنهن كنزة أم شملة بن برد المنقري التي غاظها ذلك المديح الذي يكيله ذو الرمة لمي، فأملى عليها الحسد والغيظ بأن تدس على لسان ذي الرمة أبياتاً فيها هجاء لمي وذلك في محاولة لإفساد ذلك الود القائم بين ذي الرمة ومي. ولحمل مي على كراهية ذي الرمة، من تلك الأبيات قولها:

ألا حبذا أهل الملا غير أنه
إذا ذكرت مي فلا حبذا هيا

وقولها:

على وجه مي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب الخزي لو كان باديا



ألـم تـر أن الـمـاء يـخـبـث طـعـمـه
وإن كـان لـون الـمـاء أبـيـض صـافـيـاً

إذا مـــا أتـــاه وارد مـــن ضـــرورة
تـولـى بـأضـعـاف الـذي جـاء ظـامـيـا

كـذلـك مـي فـي الـثـيـاب إذا بـدت
وأثـوابـهـا يـخـفـيـن مـنـهـا الـمـخـازيـا

فـلـو أن غـيـلان الـشـقـي بـدت لـه
مـجـردة يـومـاً لـمـا قـال ذا لـيـا

كـقـول مـضـى مـنـه ولـكـن لـرده
إلـى غـيـر مـي أو لأصـبـح سـالـيـا

فيا ضيعة الشعر الذي لج فانقضى
بـمـي ولـم أمـلـك ضـلال فـؤاديـا

ورغم أن كثيراً من المصادر تنسب هذه الأبيات إلى ذي الرمة إلا أن الأكثر منها ينسبها لكنزة كابن سلام وأبي فرج الأصفهاني، وابن عساكر، والتبريزي، والمرزوقي، والعتبي، وقد أشاروا إلى أن ذا الرمة حلف بجهد أيمانه ما قالها، ثم قال: وكيف أقول هذا وقد قطعت دهري، وأمضيت شبابي أشبب بها وأمدحها ثم أقول هذا؟.

ثم أطلع بعد حين على أن كنزة قالتها ونحلتها إياه.

أما الزجاج فقد ذهب إلى أن أم ذي الرمة هي القائلة. تريد بها أن تكرِّه مياً إلى ابنها ذي الرمة. والله أعلم بالصواب.

○○○○○

حسان يعترف بنقد الخنساء لشعره

أقام العرب في جاهليتهم أسواقاً أدبية وتجارية يلتقون على ساحاتها كل عام مرة كسوق عكاظ في الطائف، وهو من أشهر أسواق العرب، وفيه يلتقي الشعراء وينشدون أشعارهم ويتفاخرون بجيِّده، وفي عام من الأعوام أنشد حسان بن ثابت في تلك السوق قصيدة من قصائده، وكانت الخنساء حاضرة تسمعه، فسألته عن أبلغ بيت له في أبلغ قصيدة. فقال لها:

هو قولي:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقالت: أنا أنتقدك في هذا البيت من نواح عديدة. فقد قلت: الجفنات وهو جمع قلة، فالأحسن أن تقول: الجفان.

وقلت: الغر، والأحسن أن تقول: البيض، وقلت: يلمعن، واللمعان يذهب أحياناً، والأحسن أن تقول: يشرقن.

وقلت: الضحى، والأحسن أن تقول: في الدجى، وقلت: وأسيافنا، وهو جمع قلة، والأحسن أن تقول: وسيوفنا، وقلت: ويقطرن، والأحسن أن تقول: يجرين.

وقلت: دما. بالفتح، والأحسن أن تجمع وتقول: دما بالكسر. أي بكسر الدال.

فأقر حسان قولها واعترف. وكان يقول: أنا أفصح العرب

لولا الخنساء[1].

أما القصيدة التي منها البيت السابق فطويلة. ولكن وفقاً لما اشترطته أنقل منها أبياتاً ثمانية هي:

إذا استدبرتنا الشمس درت متوننا
كأن عروق الجوف ينضحن عندما

وكدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

نسود ذا المال القليل إذا بدت
مروءته فينا وإن كان معدما

وإنا لنقري الضيف إن جاء طارقاً
من الشحم ما أضحى صحيحاً مسلما

ألسنا نرد الكبس عن طية الهوى
ونقلب مران الوشيج محطما

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

أبى فعلنا المعروف إن ننطق الخنا
وقائلنا بالعرف إلا تكلما

أبى جاهنا عند الملوك ودفعنا
وملء جفان الشيز حتى تهزما

ooooo

(١) وفي رواية أن النابغة الذبياني الذي كان حكماً في سوق عكاظ قد كان له رأي نقدي في هذا البيت مشابهاً لما رأته الخنساء.

سمعت شعر أبي قطيفة فماتت

القسر والأرغام على ما لا تهوى النفس من الأمور الدنيوية، يأتي في كثير من الأحيان بنتائج سلبية للغاية. بل ربما جلب أضراراً نفسية. وأحدث متاعب بدنية قد تصل بالمغلوب على أمره إلى حد الموت ومفارقة الحياة.

والباحث في الحكايات والقصص التي تنتهي فصولها بالهلاك والموت يجد أن منشأ هذا المصير إما اعتساف النفس وحملها على ما تكرهه، أو بفعل قوة قاهر لا يستطاع دفعها.

ومن صور اعتساف النفس بفعل المؤثر الخارجي ما رواه الأصفهاني في كتاب «الأغاني» عن المدائني من أن امرأة من أهل المدينة تزوجها رجل من أهل الشام فخرج بها إلى بلده على كرهٍ منها. فسمعت منشداً ينشد شعر أبي قطيفة فشهقت شهقة، وخرّت على وجهها ميتة.

يقول أبو قطيفة في شعره الذي تسبب في موت تلك المرأة:

وبأهلي بدلت عكا ولخما
وجذاماً وأين مني جذام

وتبدلت من مساكن قومي
والقصور التي بها الأطام

كل قصر مشيد ذي أوام
يتغنى على ذراه الحمام

أقر مني السلام إن جئت قومي
وقليل لهم لدى السلام

أقطع الليل كله باكتئاب
وزفير فما أكاد أنام

نحو قومي إذ فرقت بيننا الدا
ر وحادت عن قصدها الأحلام

خشية أن يصيبهم عنت الدهـ
ـر وحرب يشيب منها الغلام

فلقد حان أن يكون لهذا الد
هر عنا تباعد وانصرام

والأطام: هي الدور المسطحة السقوف. هكذا روي عن الأصمعي. وعن إسحاق أن الأواسي ـ واحدها أسى، وهي الأصل ـ قال: ويقال: فلان في آسيه، أي أصله. والأسى والأساسي واحد. هكذا نسب عنه قوله.

○○○○○

موقف طريف
مصدره المحافظة على النظافة

الشعب الإنجليزي يحب المظاهر ويعشق التهندم، وقد جُبل على حب نظافة جميع الأشياء التي يتعامل معها مقعداً كان، أو شارعاً، أو ميداناً، أو حديقة، أو أي شيء له علاقة بحياته اليومية.

ولهذا يجد الزائر لبريطانيا مظاهر النظافة واضحة، وصور الأناقة بادية على كل شيء، وحب المحافظة على جمال الصورة في كل شيء يظهر جلياً، بل على كل فرد إنجليزي، وذلك من خلال تصرفاته التي لا تدع له أثراً في المكان الذي يتواجد فيه.

بل له تعاون ملموس في سلامة الأشياء العامة، مما يؤكد رغبته الصادقة في استمرارية بقاء كل مرفق عام نظيفاً يستهوي كل مرتاد له.

ولقد حكي أن ميدان الطرف الأغر بلندن قد اشتهر بكثرة الحمائم التي ترتاده مستأنسة بالناس الذين يأمونه. ومما يلفت النظر أن حمائم هذا الميدان أليفة للغاية فهي لا تنفر من الناس مطلقاً، بل تقع على أي كتف، وأي رأس، وأي يد.

ويروى أن إحدى الإنجليزيات حملت في يوم من الأيام زادها وفتته ونثرته في المزارع الخضراء ليأكل منه الحمام، فألقى البوليس القبض عليها وساقها إلى المحكمة، وكان دفاعها عن تهمة إلقاء الفضلات في الحدائق العامة أن الحمام كنس الأرض في أقل من لحظة. فحكمت المحكمة ببراءتها، وبتوجيه اللوم للبوليس. وفي هذه

الطرفة نظم الشاعر عبد اللطيف النشار قصيدة صور فيها تلك الحادثة الطريفة، منها قوله:

عجباً لكم ولكل من لا يعجب
يلقي الذنوب على البريء المذنب

حسناء تستدني الحمام بقوتها
أعِقابها أم شكرها تستوجب

وحمام لندن جائع في جوها
لولا الذي يهب الكريم الطيب

هبط الحمام مرفرفاً لما رأى
حسناء بالجائعات ترحب

ألقت على طول الطريق بخبزها
فمشى كأن السرب منه موكب

وإذا بشرطة لندن تقتادها
وكأن ما فعلته ما يتجنب

وسألتهم ما ذنبها فيما أتت
ألكم على عكس الخلائق مذهب

أترون إطعام الحمام جريمة
قالوا النظافة في الحدائق أوجب

○○○○○

عظيم

عظيم هذه الكلمة جعلها الشاعر أحمد الصافي النجفي عنواناً لقصيدة له قوامها أحد عشر بيتاً. وقد حلى بها صدر ديوانه العاشر الذي سماه «الشلال».

والديوان في الحقيقة قد أتى شلالاً رائعاً من القصائد التي أوغل بها في الحياة الاجتماعية إيغالاً أدرك به المعنى الذي يرمي إليه والقصد الذي ينشده.

وهو البحث في أعماق الحياة الاجتماعية بما فيها من أفراح وأتراح.

ونعود إلى قصيدته «عظيم» فنجده قد صدَّر جميع أبياتها بكلمة عظيم، وذلك على النحو التالي:

عظيم ولا جسم يعين ولا عقل
فلم أدر من أي المناقب لي فضل

عظيم بآمالي وسامي مطامحي
وإني صحيح القصد والجسم معتل

عظيم بأشفاقي وعطفي على الورى
وإني أهل الكل إذ ليس لي أهل

ومنها قوله:

عظيم بأني لا أحس بوحشة
ولو عقني دهري وقاطعني الكل



عظيم بأني في صراع مع الضنى
مع العيش لا زندي تكل ولا الرجل

عظيم بأني لا أذل لحادث
وإن طريقي رغم وعر المنى سهل

عظيم بأني لا أحس بحاجة
وإن كنت لا عل لدي ولا نهل

عظيم بأن الشعر عندي رسالة
فلم تبتذل يوماً وإن عظم البذل

ونرى في البيت الأول من تلك الأبيات فلسفة يخص بها نفسه فيما له من عظم، ولكنه لا يدري من أين أتاه وهو الذي لا يملك ما يعينه على الحصول على تلك العظمة من الناحية الجسدية وحتى العقلية، لكنه يأتي في البيت الثاني وما بعده بما يحقق مصدر ذلك العظم الذي تميز به فيقول: ما كنت عظيماً إلا بالآمال وسمو الطموح وصدق القصد، والإشفاق، والعطف على من يستحق العطف من أهل زمانه.

○○○○○

الضاد والظاء

ويعتمد في التفريق بين الضاد والظاء حينما يردان في كلمتين متشابهتين في اللفظ والرسم على السماع من المملي عن طريق التضخيم للضاد، والتخفيف للظاء، وإخراج كل منهما من مخرجه، إضافة إلى بعض القياسات.

وإذا لم يفرق المملي بين لفظيهما فإن الكاتب يخلط في بعض الأحيان بينهما. وذلك نتيجة لتقارب الشكل اللفظي والرسم الحرفي للكلمة.

فتسقط القياسات في مثل هذه الحالة، ويبقى المعنى المقصود بالكلمة هو الفارق الوحيد بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، فناضرة الأولى والتي هي بأخت الصاد معناها كما ذكره الطبري في تفسيره: ناعمة حسنة، جميلة من السرور والغبطة. وناظرة الثانية وهي التي بأخت الطاء معناها عند الطبري في تفسيره: ناظرة إلى ربها، وكذلك الشأن في ضن، وظن.

فالأولى التي هي بالضاد بمعنى بخل، والثانية التي هي بالظاء بمعنى شك أو توهم، والأمثلة كثيرة على ذلك.

ولبعض علماء اللغة أقوال عجيبة وغريبة في ذلك، منها قولهم: إن كل بيضة لطائر أو حيوان، فبالضاد إلا بيض النمل فإنه بالظاء.

وقولهم: كل ما يفيض من إناء أو غيره فبالضاد إلا فيظ النفس فإنه بالظاء.

وقالوا: ماء الرجل يقال له بيظ بالظاء وليس بالضاد.



وقالوا: إن في البيضة نفسها ما يسمى بيظ بأخت الطاء، وهي القشرة الرقيقة فوق المح.

وقالوا: إن بقية الماء في نقرة البئر يقال له بيظ.

وقد ذكر ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد»: أن أبا دلف وهو القاسم بن إسماعيل العجلي صنع بيتين قافيتهما على القيظ والفيظ، وهما:

أنا أبو دلف البادي بقافية
جوابها يعجز الداهي من الفيظ

من زاد فيها له رحلي وراحلتي
وخاتمي والمدى فيها إلى القيظ

وظن أبو دلف أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بثالث لهما، إن لم يكن قد جزم أنه لا تشترك الظاء والضاد في مسمى واحد لا يفرق بينهما إلا شكل المسمى وهيئته، فقال علي بن ظافر الأزدي صاحب كتاب «البدائع والبدائه».

وزدت فيها ولو أمسى أبو دلف
والنفس قد أشرقت منه على الغيظ

ثم قال علي بن ظافر: تذاكر بهذه القطعة، فقال بعض الحاضرين: لم يبق رابعة، فصنعت:

أزيد فيها وماتا بغيظهما
ما ألقت النمل أحياناً من البيظ

ثم صنع القاضي الأعز بن المؤيد بعد ذلك بديهاً:

ذو الحزم لا يتعدى في فعائله
ما دام للناس تكوين من البيظ



والبيظ هنا: هو ماء الرجل، وهو ما سبقت الإشارة إليه.

ثم صنع شهاب الدين ابن أخت الوزير نجم الدين:

يا سادتي في القوافي قلّ ما تركوا
كما تح البئر لم يترك سوى البيظ

حازت قوافيكم الظاآت أجمعها
كمثل ما حيز مح البيض بالبيظ

لكن مواعيد باديكم أبا دلف
لا صدق فيها كمثل الآل والبيظ

○○○○○

الضاد والظاء مرة أخرى

يعتني الشعراء بقواعد الإملاء وأصول الكتابة، ويحرصون كل الحرص على أن يكتبوا كل كلمة برسمها الصحيح ومالها من خصائص تميزها عما يشاكلها حتى لا يذهب في أقوالهم بمذاهب لم يكونوا قاصدين لها.

وبما أن الضاد والظاء يقع بينهما تداخل واختلاط في الكلمة التي تحتوي إحداهما لدى كثير من الخطاطين والكتاب، فإن هناك اعتناء وحرصاً على فك ذلك التداخل من قبل الشعراء.

والذي يتتبع المكاتبات التي تحصل بينهم يجد أن لهم ملاحظات على الأخطاء التي تقع من أحدهم، بل ربما آخذوه عليها واحتسبوه نقصاً في علمه ومعرفته وثقافته.

وفي مجال تداخل الظاء بالضاد، وقفت على مراسلة شعرية شيقة بهذا الخصوص حصلت بين أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي وبين الوزير أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي الذي كتب للزبيدي كتاباً فجعل عبارة «فاظت نفسه» بالضاد، وهي في هذا الموقع بالظاء أخت الطاء.

قال صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»: فنبه الزبيدي المصحفي إلى ذلك الخطأ في أبيات بعث بها إليه منها قوله:

قـل لـلـوزيـر الـسـنـي مـحـتـده

لـي ذمـة مـنـك أنـت حـافـظـهـا



وقوله وهو ما أراد به التنبيه إلى الظاء:

لا تـدعـن حـاجـتـي بـمـطـرحـة

فـإن نـفـسـي قـد فـاظ فـائـظـهـا

فأجابه المصحفي بأبيات فيها تصحيح للخطأ الذي وقع فيه منها قوله:

وقـد أتـتـنـي فـديـت شـاغـلـةُ

لـلـنـفـس إن قـلـت فـاظ فـائـظـهـا

فأجابه الزبيدي بأبيات ضمنها شعره الشاهد على ذلك، منها قوله:

أتـانـي كـتـاب مـن كـريـم مـكـرم

فَـنَـفَّـس عـن نـفـس تـكـاد تـفـيـظ

ثم يشير في الأبيات إلى مباحثة المصحفي في ذلك فيقول:

وباحثت عن فاظت وقبلي قالها

رجال لديهم في العلوم حظوظ

روى ذاك عن كيسان سهل وأنشدوا

مـقـال أبـي الـغـيـاظ وهـو مـغـيـظ

وسـمـيـت غـيـاضـاً ولـسـت بـغـائـظ

عـدواً ولـكـن لـلـصـديـق تـغـيـظ

فـلا رحـم الـرحـمـان روحـك حـيـة

ولا هـي فـي الأرواح حـيـن تـفـيـظ

وتعليق صاحب «نفح الطيب» هذا هو، وفي خطاب الوزير بهذا البيت وإن حكى عن قائله ما لا يخفى أن اجتنابه مطلوب، على أنه قد يقال: «فاضت نفسه» بالضاد، كما ذكره ابن السكيت في خلل «الألفاظ»، والله أعلم.

مات ذو الكلاع
في مدينة الكاهن يوط بمصر

ذكر الإخباريون أن ذا الكلاع الحميري كان قبل إسلامه يركب في اثني عشر مملوكاً من السودان.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وجلد شاة على كتفه حين قدم من اليمن.

وقد مضى ومعه بعض من رفاقه لفتح الإسكندرية، وهناك توفي في مدينة مريوط. وسميت «مريوط»؛ لأنه كان بها كاهن من كهان القبط اسمه: يوط، وكان إليه يشيرون وبكهانته يتمسكون. وكان يحدِّث قومه أنه لا بد أن يظهر نبي من الحجاز حتى يختم الله تعالى به الرسل وينشر دعوته في المشرق والمغرب، فلما بعث رسول الله ﷺ عمد يوط إلى ثلاثة أفراخ حمام فألقاها في منزله ثم ارتحل على حين غفلة من قومه، وسار يطلب أقصى المغرب، فلما كان يوم الدخول عليه لم يجدوه، ورأوا الأفراخ، وإذا أحدهم كما نسل، والآخر كما ريش، والثالث كما طار.

فقال العلماء منهم: إنه قد ضرب لكم مثلاً، وقال بلسان إشارته: من قدر منكم أن يرتحل عن هذه المدينة فليفعل فإنه يغنم سلامة نفسه، ومن كان منكم ثقيل العيال فليحتل على نفسه حتى يرتحل منها شبهاً بهذا الطائر الذي كما نسل.

وأما الذي زغب فهو مثل الفقير المحتاج الذي لا يقدر، ولا قدرة له، إن أقام هلك.



ثم خرجوا من داره يقولون: مريوط، فتحولت المدينة من اسمها إلى مريوط.

أما ما بقي من خبر ذي الكلاع، فإنه لما مات بمريوط رثاه والده شنوخ بما رثاه به حمير لأبيه سبأ بن يشجب.

وقد ذكر صاحب كتاب «الإلمام» أحد عشر بيتاً من تلك المرثية أذكر منها قوله:

عجب ليومك ماذا فعل
وسلطان عزك كيف انتقل

فأسلمت ملكك لا طائعاً
وسلمت بالأمر لما نزل

فلا تبعدن فكل امرئ
سيدركه بالسنين الأجل

لئن صحبتك بنات الزمان
وسر بذا الدهر وجه الأمل

لقد كنت بالملك ذا قوة
لك الدهر بالعز غار وجل

بلغت من الملك أقصى المنى
نقلت وعزك لم ينتقل

حويت من الدهر إطلاقه
ونلت من الملك ما لم ينل

وحملت عزك ثقل الأمور
فقام بها حازماً واستقل

عداوة الشعراء

في العصور الماضية كانت معاداة الشعراء مجازفة ومخاطرة بالعرض والخلق، ولكنها خفّت حدتها وقل شأنها في هذا العصر لعدة أسباب، لعل أولها: شعور الشاعر بعدم جدوى شعره لعدم وجود أذن صاغية لما يقوله. وثانيها: طغيان المادة على الحياة الاجتماعية بصفة عامة بحيث لم يكن هناك مجالاً لانتقال القصيدة المصحوبة بالأصبع المشيرة إلى الشخص الذي كان عرضة للهجاء. وثالثهما: أن الشاعر أصبح يضرب للاعتداء اللفظي ألف حساب وحساب، حيث أصبح كلٌّ في مقدوره المطالبة بحقه ورد اعتباره إليه مهما تكن مكانته الاجتماعية حيث ذابت القبلية وأوشكت أن تندمج في مجتمع واحد يكون أفراده سواسية من حيث الحسب والنسب.

ولهذا كله قلَّ تذوق الهجاء ولم يعد له الطعم الذي كان يتذوقه الأسلاف الذين يعد الشاعر فيهم وسيلة حاسة تشير إلى أي نقطة تتميز بلون غير اللون المألوف لديهم، مما جعل الشاعر أنذاك قيمة، ولقوله وقعاً، الأمر الذي يجعل معاداته مجازفة ربما تلصق عاراً وتهد مجداً وتنقض مبرماً. ونستدل على ذلك بما قاله الشاعر المتنبي في هذا الخصوص إذ يقول:

ومكايد السفهاء واقعة بهم
وعداوة الشعراء بئس المقتنى

وقد هجا ابن الرومي أبا سليمان المفتي فقال:

أبو سليمان لا ترضى طريقته
لا في غناء ولا تعليم صبيان

لـه إذا جـاوب الـطـنـبـور مـحـتـفـلاً
صـوت بـمـصـر وصـوت فـي خـراسـان

عـواء كـلـب عـلـى أوتـار مـنـدفـة
فـي قـبـح قـرد وفـي اسـتـكـبـار هـامـان

وتـحـسـب الـعـيـن فـكـيـه إذا اخـتـلـفـا
عـنـد الـتـنـغـم فـكـي بـغـل صـحـان

ويقول ابن الرومي أيضاً في رجل ثقيل الظل:

كـــان لــــلأرض مـــرة ثـــقـــلان
فـلـهـا الـيـوم ثـالـث بـفـلان

ويقول أبو الفرج الرشاش في هجاء أحد الأشخاص:

إنـك لا تـعـرف الـجـمـيـل ولا
تـفـرق بـيـن الـقـبـيـح والـحـسـن

إن الـذي يـرتـجـى نـداك لـكـالـحـا
لـب تـيـسـاً مـن شـهـوة الـلـبـن

○○○○○

حبيبي

يا حبيبي، هذه الكلمة العذبة التي يعتبرها عشاق الألفاظ الرقيقة مفتاحاً للتفاهم، تحتل مساحة كبيرة من ألسنتهم، وتستولي على أذن السامع بسحرها وعذوبة نغمتها.

وإظهار الحب بلفظة دون إضماره ربما يفرض تبادل حب بحب في أي منحى من مناحي العلاقات الاجتماعية.

والحب بمعانيه المختلفة يقصد به أهدافاً كثيرة أعلاها وأجلّها وأصدقها وأبقاها! حب الله. وهذا هو الحب الذي ما بعده ولا قبله حب؛ لأنه يعود بالمنفعة على الإنسان في أولاه، وأخراه. كما أن التجرد منه جحود وكفر، وعصيان، ومحاربة لله.

أما أنواع الحب الأخرى فهي تكون صداقات وعلاقات دبلوماسية تتخللها المنافع الشخصية في كثير من الأحيان.

وتبقى الإشارة في هذا الموضوع محددة المعنى الذي يفهمه العشاق من الحب الذي يربط بين المتعاشقين، والذي يعد في حد ذاته لغة للهوى ومفتاحاً لموجة البث المباشر التي تنقل ما يخالج القلب من مشاعر مغمورة بالوله والعطف والحنان والتوجّد.

ومن صور الحب التي يبثها الشعراء عبر موجات موجهة لمن يذوبون في عشقهم تلك الصورة التي خلفها الشاعر علاء الدين بن مليك الحموي المتوفى سنة ٩١٧هـ، في عدة أبيات، منها قوله:

حبيبي إن يكن يرضيك قتلي

فيا بشراي ذا إن كان سرك





إنه رضا واقتناع بالقتل إن كان فيه ما يطيب خاطر معشوقه. ولكن بأي أداة يرضى بأن يقتل؟ هذا ما يوضحه البيت التالي:

حبيبي لي بسيف اللحظ فاقتل
فما أنا من يخالف قط أمرك

ويسأل عمن أباح الهجر لحبيبه؟ ويخبره بأن الذي أباح ذلك إنما هو قد غره لكنه يستدرك.

إن كان الهجر من خوف واش، وليس من حاسد فإنه يقبل العذر في ذلك الهجر:

حبيبي من أباح لديك هجري
ومن هذا الذي بالله غرك

حبيبي إن يكن من خوف واش
جفاك فقد قبلت اليوم عذرك

حبيبي لو خيال منك وافى
وجدت بزورة ما كان ضرك

حبيبي اليوم ما أقساك قلباً
على مضني الهوى وأرق خصرك

حبيبي إن يكن سكناك قلبي
فإنك يوسف وسكت مصرك

حبيبي فيك أغراني عذولي
وحذرني صدودك لي وهجرك

○ ○ ○ ○ ○

صاحب السيف النقاد
يذكّر القاضي بيوم المعاد

والقاضي في كل زمان هو موضع الإشارة، سواء كانت الإشارة تعني الإشادة بإيجابياته المتمثلة في عدله، ومساواته بين المتخاصمين لديه وسمو خلقه، وتواضعه وورعه، واستقامة أحكامه، وحسن تصرفه، وسرعة بديهته وحضور ذهنه وفراسته، أو أنه يقصد بها سلبياته التي تشتمل على عنفه، وتكبره وجوره وظلمه وتفضيله بعض المتخاصمين على بعضهم الآخر. وما إلى ذلك من الأشياء التي تستميل عواطفه في مجلس القضاء، كقبوله الهدايا والهبات، وغيرها مما يكون شراكاً تصطاد ضميره وطعماً يصرفه عن استقامته.

ولأن مسؤولية القاضي مسؤولية كبيرة وعظيمة ذات مساس بحياة الناس الاجتماعية، فإنه ليس كل من تفقه في الدين يصلح لأن يكون قاضياً؛ لأن هناك شروطاً يجب توفرها في القاضي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

والشعراء لا يغفلون عن التذكير بأهم الشروط التي يجب توفرها في القاضي. فمن أولئك الشعراء الشاعر إبراهيم بن قيس بن سليمان الهمداني الحضرمي الذي أشير في ذيل ديوانه «السيف النقاد» إن ظهوره كان في صدر الخمسين الثانية من المائة الخامسة هجرية، ولم تحدد سنة ميلاده ولا وفاته.

أقول: إن ابن قيس هذا قد نظم قصيدة قوامها مائة وسبعة وأربعين بيتاً، كلها توجيهات فقهية للقاضي والقائد وولي الأمر المنفذ. والذي

يهمنا من هذه القصيدة هو الجزء المتعلق بالتوجيهات الخاصة بالقاضي حيث جاء قوله:

نصبت ومن ينصب لحكم القضا فقد
تنصَّب للبلوى على خطر أد

وقوله:

فخذ بكتاب اللّه واقتد بأحمد
وأتباعه ترشد وترشد إلى الرشد

وقوله:

ولا تقض إلا عن فراغ وخلوة
عن الملل المذموم والغضب المردي

وواس بعينيك الخصوم ملاحظا
وساو سواء مجلس الحر والعبد

وأطرق إذا جاءتك حجة مدع
قليلاً كذا أطرق إذا احتج ذو الجحد

ولا تتهم خصماً لخصم ولو بدا
لو همك وهم من سديد ولا وغد

ودع للنساء وقتاً يصلنك عنده
ليخصمن أو يشكين ما نلن من وجد

وقوله:

وعدل من الناس الثقات الذين لا
تشك ولا ترتاب فيهم لدى الشهد

التشجيع

والتشجيع يعد وسيلة من الوسائل التي يقصد بها الحث على التوجه إلى مزاولة نشاطات شريفة وأفعال حميدة.

وهو أيضاً جرعة منشطة تضمن الاستمرار على المثابرة في الحصول على الأفضل مما يسعى إليه الإنسان الذي يبلغه صوت المشجع.

والتشجيع مهما كان نوعه يأتي بثمرة، ويحقق أهدافاً وغايات تقصر عنها في كثير من الأحيان طموحات من لا تسمع أذنه مشجعاً له.

والتشجيع له مفعول يطرد الملل والسأم الذي يلقي بظله أحياناً في الطريق الطويل الذي يسلكه المرء.

والشعراء يدركون مدى فعالية التشجيع وتأثيره، ولهذا نجدهم يكبرون في أجيال أمتهم الهمم، ويعلقون عليهم آمال أمتهم. وذلك بتحينهم الفرص والمناسبات التي تمكنهم من إشعال فتيل الحماس في نفوس الأجيال الصاعدة ليزيدوهم بها دفعاً نحو التقدم في طلب العلم والمعرفة، وطرق مجالات الحياة الشريفة وهذا يعد إسهاماً من الشعراء في بناء ركائز ودعائم أمتهم.

ولقد كان للشاعر السعودي علي حسن العبادي نصيب لا بأس به في مجال التشجيع على طلب العلم؛ حيث أنشأ قصيدة بمناسبة نيل كل من علي سرحان القرشي، وعثمان محمد الصيني درجة الدكتوراه. ولا



إخاله ـ وأعني بذلك العبادي ـ إلا مريداً بقصيدته إصابة عصفورين بحجر ـ كما يقولون ـ، فهو يهنِّئ كل من علي وعثمان، بقطف ثمرة جدهما واجتهادهما، وفي نفس الوقت يثير في نفوس أبناء أمته الحماس على مواصلة السعي في طلب العلم ونيل الشهادات العالية. وكأنما هو يقول للبقية: هلم ألحقوا بإخوانكم وواصلوا الاجتهاد وأدلجوا في سبيل المعرفة ما وسعكم الإدلاج، وإياكم إياكم والتراخي. ومن تلك القصيدة قوله:

قد نلتما دون امتراء
عليا المراتب في السما

وتشرفت بكما العلو
م بكل جهد واعتناء

وقوله:

علي فديتك من أديـ
ب جاء يبحث بانتقاء

وقوله:

عثمان يا علماً له
في النحو ما فيه اكتفائي

وقوله:

إني بكيت على الصبا
حتى شرقت من البكاء

وأثرتما في الأسى
في كل صبح أو مساء

لـكـنـنـي وأنـا الـمـعـلـ
م قـد عـقـدت عـرى الـرجـاء

فـي كـل فـتـيـان الـبـلا
د رجـالـهـم وهـمـو عـزائـي

○○○○○

الشعر والشعراء

وقل من الناس من لا يكون للشعر في نفسه وقع وتأثير خاص، لأن الشعر بطبيعته يتفرد بخاصية ومنهج مؤثر. ولهذا يكون للشعر مكانة متى كان صادراً عن شاعر بلغت به الحكمة في القول مكاناً يتعشق رؤيته عامة الناس وخاصتهم على السواء.

والشعراء إن هم وظفوا الشعر لمعالجة المشكلات الاجتماعية، وجاء موافقاً لما ترتاح لمفعوله النفوس فهو الذي يجب أن يحفظ في الصدور وأن يدون ويقرأ ويعتنى به.

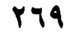
ونحن إذا تتبعنا تاريخ الشعر منذ نشأته وجدنا له دوراً فعالاً في حل كثير من المشكلات التي تنشب بين الأفراد، وعلى مستوى القبائل، وتتحول إلى حرب لا هوادة فيها.

ولست هنا في مجال إحصاء للقضايا التي كان للشعر في حلها دور بارز وفعال؛ لأن ذلك معروف وكتب التراث مليئة به.

لكن الإشارة تجدر بما ذكره الشاعر محمد بن عبد المطلب بن واصل من نماذج لمواقف الشعر والشعراء إزاء المشكلات والقضايا التي منها ما بلغ به التعقيد إلى سفك الدماء في قصيدة طويلة قوامها ثلاثة وخمسين بيتاً، قالها في تكريم الشاعر المعروف أحمد شوقي سنة ١٩٢٧م، والتي منها قوله:

لنا نغم يوم البيان بحسنه

ترى الطير في ألحانها تتهزج





فطوراً تراه يسلب المرء لبه
على النفس في أحنائها يتولج

وطوراً إذا شئنا زخرنا خضارماً
فخاض أولو الألباب فيها ولججوا[1]

ونرسله يوم الوعيد صواعقاً
إذا الناس من هول المواقف أثلجوا

نقيم به الأيام سوقاً وإن نشأ
نسد به وجه الزمان ونفرج

فبالشعر قدماً أفنت الحرب وائلاً
وبالشعر أذكاها عبيد وحندج

وكان بروح اللّه شعر ابن ثابت
على الكفر والطاغوت ناراً تأجج

وطاح بنو مروان بالشعر إذ هم
أسير معنى أو قتيل مضرج

ooooo

(١) الخضارم كما في شرح القصيدة: جمع خضرم وهو البحر العظيم، وزخرها ملأها. ولججوا فاضوا اللجة أو ركبوها.

الناس فيهم من طباع الذر

لقد قيل قديماً: «على المورد العذب يكثر الزحام». والواقع يثبت أن الناس لا يغشون إلا أبواب أهل الكرم والفضل والجود.

ولا يمجدون ولا يمدحون إلا من ينالون منه فضلاً، ويستمتعون منه بكرم.

ولذا فهم أشبه ما يكونون بالذر الذي منحه الله قوة في حاسة الشم فهو نحو العظم الدسم يتتابع في سلسلة تبدأ من قريته وتنتهي إلى ما حوله من مادة دسمة ينز منها الدهن والشحم.

إلى أن تصير تلك المادة جافة لا تنقى ولا يشتم منها رائحة الزفر، بعد ذلك ينصرف باحثاً عن مادة دسمة أخرى وهكذا شأنه.

وإذا ما تعرض الكريم إلى نكسة وجائحة مالية تغير من طبع كرمه وجوده. انفضوا من حوله، ومضوا باحثين عن غيره إلا النادر والنزر اليسير ممن تبقى في ذاكرته آيات الفضل السالفة، ماثلة أمامه.

والناس إلى جانب حرصهم على الاستمتاع بفضل الكرماء ومعرفتهم لقيمة الكرم ومكانة الكرماء، لا يحدثون أنفسهم باقتفاء أثر أهل الفضل والجود والعطاء.

ولقد أفصح أبو العتاهية عن حال أولئك القوم الذين يسترفدون ولا يرفدون ويستطعمون الناس ولا يطعمون بقوله:

فيا رب إن الناس لا ينصفونني

وكيف ولو أنصفتهم ظلموني



وإن كـان لـي شـيء تـصـدوا لأخـذه
وإن جئت أبغي شيأهم منعوني

وإن نالهم رفدي فلا شكر عندهم
وإن أنـا لـم أبـذل لـهـم شـتـمـونـي

وإن وجدوا عـنـدي رخـاء تـقـربـوا
وإن نـزلـت بـي شـدة خـذلـونـي

وإن طـرقـتـنـي نـكـبـة فـكـهـوا بـهـا
وإن صـحـبـتـنـي نـعـمـة حـسـدونـي

سـأمـنـع قـلـبـي أن يـحـن إلـيـهـم
وأحـجـب عـنـهـم نـاظـري وجـفـونـي

وأقـطـع أيـامـي بـيـوم سـهـولـة
أزجـي بـه عـمـري ويـوم حـزون

ألا إن أصفى العيش ما طاب غبه
ومـا نـلـتـه فـي عـفـة وسـكـون

○○○○○

إنهـــا

إن كلمة (حبيبي) كلمة معسولة لها ذوق خاص وعام.

فالخاص منها هو: ما كان متبادلاً بين عشيقين تبادلاً يرشف كل منهما به هوى صاحبه رشفاً عن تلهف وشفقة وتشوق.

وأما العام منها فهو: ما مثل رابطة صداقة وإخاء أو إقامة علاقة اجتماعية بين جماعة وأخرى أو فرد وآخر.

وكلمة (حبيبي) لها منطلقات متعددة، بل وقد تستخدم لتحقيق غرض، ويُقضى بها حاجة فقط.

ولهذا فإن الوقوف بها عند نقطة معينة ينبثق منها تعريف يستحيل استبداله.

والشعراء في جملتهم يستخدمون كلمة (حبيبي). ويوظفونها وفقاً لمنهج القصيدة التي تفرضها الظروف ويملي عباراتها خيال الخاطرة التي ولدتها.

أما شعراء الغزل فليس لهم بد من استخدامها فهي جرس النداء تصغي إليه أذن المعشوق، وتستزيد من الاستماع إليه، بل وتتحسس مصدره.

والشاعر عزيز أباظة واحد من الشعراء الذين استخدموا كلمة (حبيبي)؛ بل إنه جاء بتعريفات لها في قصيدة قدم لها بقوله: «تداولت في غير رفق ولا اتزان كلمة (حبيبي) على ألسن الناس حتى لكادت قدسيتها أن تبتذل»، وجاء في تلك القصيدة:

يا حبيبي... إنها التسبيح
بل أسمى وأعلا

إنها نبض من الروح
إذا أزكى وصلى

إنها قدس من النور
على الكون أطلا

إنها لطف السماوات
إذا انهل وهلا

إنها الرحمة والغفر
إن عما وأظلا

إنها توبة عاص
مؤمن حاد وزلا

إنها ديباجة الروض
همي الطل فطلا

إنها فرحة أم
بابنها المشفى أبلا

وعلى الذي يريد معرفة المزيد من هذه التعريفات أن يقرأ ذلك في ديوان عزيز أباظة «تسابيح قلب».

○ ○ ○ ○ ○

آخر شعر قاله أبو العتاهية

لقد ناجى أبو العتاهية ربه في أبيات قالها حينما مرض، المرض الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة وترك الدنيا التي ملأها تخويفاً بالموت وحثاً على الزهد فيها.

وفي الأبيات ما يدل على صدق مناجاة أبي العتاهية لربه كما أن فيها ما يدل على اعترافه بكبر الذنب الذي يعلق عظيم أمله بتجاوزه من الله وقبول التوبة الماحية لأثره.

ولقد أبدع أبو العتاهية في طريقة إظهار اعترافه باستكبار الذنوب وتعظيمها وإظهار الندم على فعلها بطريقة علنية تتمثل في عض الأنامل وقرع السن، وتلك وسيلة تتخذ للتعبير عن الندم على ما يفرط من الأمر.

وفي تلك المناجاة الصادقة التي ناجى بها أبو العتاهية ربه قوله:

الناس يظنون بي خيراً، وهذا الظن منهم لا يغفر لي عندك إن لم يكن منك عفو عني ورحمة بي. يقول:

إلهي لا تعذبني فإني
مقر بالذي قد كان مني

وما لي حيلة إلا رجائي
وعفوك إن عفوت وحسن ظني

فكم من زلة لي في البرايا
وأنت علي ذو فضل ومنّ

إذا فكرت في ندمي عليها
عضضت أناملي وقرعت سني

يظن الناس بي خيراً وإني
لشر الناس إن لم تعف عني

أجن بزهرة الدنيا جنوناً
وأفنى العمر فيها بالتمني

وبين يدي محتبس طويل
كأني قد دعيت له كأني

ولو أني صدقت الزهد فيها
قلبت لأهلها ظهر المجن

○○○○○

شهادة العلماء والشعراء

لأبي العتاهية

لا غرابة في كثرة الكلام عن أبي العتاهية، فكل عَلَم من أعلام الشعر أو الفكر أو العلم لابد وأن يكثر عنه الكلام. ولابد أن يكون له أنصار يذكرون محاسنه ومناقبه، وأضداد يشيعون مقابحه ومثالبه، ويعرضون شيء أعماله.

ولقد ذكر الدكتور شكري فيصل محقق «ديوان أبي العتاهية» أنه وجد في إحدى النسخ المخطوطة للديوان، والتي لم يعتمد عليها في تحقيقه نصوصاً في مقدمتها قولهم: إن أبا العتاهية واسمه إسماعيل بن القاسم مولى لعنزة كان جزاراً، وكان يرمى بالزندقة، وأنه كان له بنتان يقال لأحدهما: لله، وللأخرى: بالله. وكان يستعظم ذلك، وغزله ضعيف مشاكل لطباع النساء.

أما النسخة التي أشار الدكتور شكري أنه اعتمدها، ففي مقدمتها تمجيد لأبي العتاهية وشهادات من الرواة وأئمة النحو والفقه والأدب والشعر، تثبت لأبي العتاهية الفضل والتقدم في الشعر استدلالاً بتمثله بالحكم القديمة والحديث المأثور، فمن أولئك الشهود: مصعب بن عبد الله بن الزبير، والمبرد، والفراء، والزبير بن بكار، وسلم الخاسر، وابن الأعرابي.

ولقد روي أن أبا العتاهية، وأبا نواس الحسن بن هاني الحكمي، والحسين الخليع اجتمعوا، فقال أبو نواس: أنشد، فقال: بل ينشد أبو إسحاق بن القاسم يعني أبا العتاهية، فأنشد أبو العتاهية قصيدة منها قوله:



يــا إخــوتــي إن الــهــوى قــاتــلــي
فــيــســروا الأكــفــان مــنْ عــاجــل

ولا تــلــومــوا فــي اتــبــاع الــهــوى
فــإنــنــي فــي شــغــل شــاغــل

أمــســى فــؤادي عــنــد خــمــصــانــة
ذات وشـــاح قـــلـــق جـــائـــل

كـــأنـــهـــا مـــن حـــســـنـــهـــا درة
أخــرجــهــا الــيــم إلــى الــســاحــل

إخــال فــي فــيــهــا وفــي طــرفــهــا
ســواحــراً أقــبــلــن مــن بــابــل

لــم يــبــق مــنــي حــبــهــا مــا خــلا
حـــشـــاشـــة فـــي بـــدن نـــاحـــل

يــعــذلــنــي الــعــاذل والــحــب قــد
أســكــت عــنــي قــالــة الــعــاذل

يــا مــن رأى قــبــلــي قــتــيــلاً بــكــى
مــن شــدة الــحــب عــلــى الــقــاتــل

فقال أبو نواس والخليع: أما مع سهولة هذه الألفاظ وملاحة هذا القصد، وحسن إشارتك يا أبا إسحاق، فلا ننشد.

○ ○ ○ ○ ○

بشار يعترف
بأن أبا العتاهية شاعر مطبوع

يعد بشار بن برد من الشعراء الذين طوعوا القافية، حتى خضعت لهم وأتتهم منقادة، ولهذا فهو من الشعراء الذين لهم رأي في الشعر وحكم عليه.

وموقفه من أبي العتاهية وشعره يتجلى في هذا الخبر الذي أورده الأصبهاني، وملخصه أن المهدي جلس للشعراء يوماً وفيهم بشار وأشجع السلمي، وأبو العتاهية، فقدم أبو العتاهية، فلما سمع بشار كلامه قال لأشجع: يا أخا سليم، أهذا ذلك الكوفي الملقب؟ قال أشجع: نعم. قال بشار: لا جزى الله خيراً من جمعنا معه يستنشد قبلنا، فقال أشجع: هو ما ترى، فأنشد أبو العتاهية يقول:

ألا مـا لـسـيـدتـي مـا لـهـا
أدلـت فـأجـمـل إدلالـهـا

وإلا فـفـيـم تـجـنـت ومـا
جـنـيـت سـقـى الـلّـه إطـلالـهـا

فقال بشار: بهذا الشعر يقدم علينا، ويحك يا أخا سليم، ما أدري من أي أمريه أعجب أمن ضعف شعره أم من تشبيبه بجارية الخليفة، ولما انتهى أبو العتاهية إلى قوله:

وقـد أتـعـب الـلّـه نـفـسـي بـهـا
وأتـعـب بـالـلـوم عـذالـهـا

أتــتــه الــخــلافــة مــنــقــادة
إلـــيــــه تــــجــــرر أذيــــالــــهـــا

ولـــم تـــك تـــصـــلـــح إلا لـــه
ولـــم يـــك يـــصـــلـــح إلا لـــهـــا

ولـــو رامـــهـــا أحـــد غـــيـــره
لـــزلـــزلـــت الأرض زلـــزالـــهـــا

ولـو لـم تـطـعـه بـنـات الـقـلـوب
لـمـا قـبـل الـلّـه أعـمـالـهـا

وإن الـخـلـيـفـة مـن بـغـض لا
إلـيـه لـيـبـغـض مـن قـالـهـا

قال أشجع: فقال بشار وقد اهتز طرباً: ويحك يا أخا سليم، أترى الخليفة لم يطر عن فراشه طرباً لما يأتي به هذا الكوفي. قال: لا والله ما أخذ أحد من الشعراء في ذلك اليوم جائزة أسنى من جائزته.

○○○○○

برذون الزيات

جاء في «ديوان الوزير الزيات» واسمه محمد بن عبد الملك الزيات أنه كان عنده برذون فارهٌ يعتز به، ويتفاخر بركوبه، وكان أحمد بن خالد حيلويه قد ذكره للمعتصم فأخذه المعتصم من الزيات، وبقي الزيات بلا برذون بسبب وشاية حيلويه له عند المعتصم.

فما كان من الزيات إلا أن لجأ للشعر، وتلك عادة الشعراء عندما يحزبهم أمر، ليصور حالة برذونه، ويصف طباعه، وما أصابه عليه من حزن وأسى حيث اعتبر فراقه مصيبة جلبت له الجزع وضيق المذهب.

قالوا: جزعت فقلت: إن مصيبة
جلت رزيتها وضاق المذهب

وهل يفيد العزاء والأحم الأشهب الذي كان يتباهى بامتطائه، ويقرب له البعيد ويحمل عليه الثقيل قد مضى لسبيله:

كيف العزاء وقد مضى لسبيله
عنا فودعنا الأحم الأشهب

ويذكر أن سبب فراق برذونه له كان بفعل الوشاة، وأنه قد عزّ عليه ذلك الفراق كثيراً:

دب الوشاة فباعدوه وربما
بعد الفتى وهو الحبيب الأقرب

للّه يوم غدوت عني ظاعنا
وسُلبتُ قربك أي علق أسلب





ولصدق محبته لبرذونه جعله متحداً معه في نفسه، وأنَّ أخذ المعتصم له كان عبارة تقسيم وتجزئة لنفسه بحيث أصبحت نفسه مقسمة إلى قسمين: أحدهما مقيم، والآخر الذي يمثل البرذون قد اقتيد وتباعد عنه:

نفسي مقسمة أقام فريقها
وغدا لطيته فريق يجنب

ويناجي برذونه، أو بالأصح خيال برذونه مناجاة المذكر بما كان عليه من حال يوم كان عنده، فيقول:

وغدوت طنان اللجام كأنما
في كل عضو منك صنج يضرب

ويشبه برذونه الذي راح منه بالكوكب، والسرج من على ظهره بالغمامة:

وكأنما سرجك إذ علاك غمامة
وكأنما تحت الغمامة كوكب

ويذكر بأن في امتلاكه لذلك البرذون مسرة لصديقه، وغيظاً لعدوه:

ورأى علي بك الصديق مهابة
وغدا العدو وصدره يتلهب

والقصيدة طويلة تبلغ نحواً من أربعة وعشرين بيتاً.

○ ○ ○ ○ ○

سجين لأني

استعذب الشاعر أحمد الصافي النجفي عبارة «سجين لأني» فجعل منها نقطة، حقق الانطلاق منها بناء قصيدة اشتملت على تعليلات كلها بوح بواقع حاله وكشف عن مقدرته وذاتية نشاطه.

وقد رصد في أبياتها التي صدرها بعبارة «سجين لأني» مشاعره واتجاهاته النفسية، وما يعايشه من ظروف وأحداث في حياته، حيث استهلها بما ينبئ عن حالته الصحية:

أراني سجيناً من سقام ملازم
فمن مطلقي من سجن سقمي وأغلالي

ويؤكد أن السقم الملازم له قد أحدث له ضعفاً أقعد همته، وثنى عزمه فلا يستطيع مع ذلك تحقيق آماله ورغباته التي كان يطمح إلى تحقيقها:

سجين لأن الضعف يقعد همتي
وإني لا أستطيع تحقيق آمالي

ويعلل البقاء في سجنه بأنه لا يملك جناحاً يطير به صاعداً إلى أوج العلا:

سجين لأني لا جناح يعينني
ليصعد بي حيناً إلى أوجي العالي

ويعود إلى اقتناعه ورضائه بالسجن فيقول:

سجين لأني لاصق الجسم بالثرى
وروحي في سير حثيث وترحال



ويبدي اقتناعه بالسجن لأنه كما يقول في حياة رخيصة زهيدة هي أقل من نفيس الدر الذي يملكه:

سجين لأني في حياة رخيصة
وعندي نفيس الدر ذو الثمن الغالي

ويعزو رضوخه لذلك السجن؛ لأنه كما يقول: لا يرى له من يفهمه، بل لم يجد مثيلاً له في مجتمعه يشجعه على التعايش معه، ويمضي معه في طريق واحد:

سجين لأني لا أرى لي فاهماً
سجين لأني لا أعيش وأمثالي

ويمعن في ذكر المزيد من التعليلات بقناعته بالسجن فيقول: أنا سجين بسبب صخب النفس الناتج عن كوني قلق البال:

سجين لأني صاخب النفس والمنى
وإني جياش الحشا قلق البالي

ويستطرد في تعليلاته التي لا يستغرب معها سجنه، بل يصور حاله بالطائر الذي قص جناحه وليس له سوى البقاء على الأرض سبيلاً، حيث تعذر عليه الرفيف والطيران في الجو. لكنه ـ وأعني بذلك النجفي ـ لا يبخس روحه حقها وطموحها فيقول: إنها جديدة، لكنها في جسد بالي:

سجين لأني طائر قص جنحه
وأني جديد الروح في هيكل بال

○○○○○

عباس يقول على لسان إبليس

رأى الكاتب والأديب والشاعر عباس محمود العقاد أن في الحرية مبدءاً وفاقياً تقوم على مرتكزاته عناصر التفاهم الذي يفضي إلى التآلف والتآخي، ويكون وحدة في الهدف والمصير. ويقوي من رابطة الدين الذي هو قوام الأمة، ورمز هيبتها وعنوان قوتها.

واتحاد الأمة إذا بنى على عقيدة دينية سليمة يكون حصناً منيعاً، وسياجاً قوياً، تقصر دون التطاول عليه أي فئة مناوئة له مهما بلغت قوتها، واشتد بأسها، وقويت شوكتها، وتكاثر عددها.

وأمام الوحدة الإسلامية تنهزم كل قوة، لأنها بصادق إيمانها تستمد العون من الله فتجد منه عوناً ونصراً.

ولقد وقف الشاعر عباس محمود العقاد متصوراً واقع وحدة تشهد مصيراً مشتركاً، وتحف بها حرية في الرأي والفكر والسياسة وتسعى إلى هدف بعيد يسمو عن النفعية الشخصية، والأنانية التي يرغب إبليس في قيامها بين الناس لتكون له خطوة أساسية لإيجاد شقاق وتناحر وتنافر بين الناس.

ومن خلال تلك الوقفة التأملية لعباس محمود العقاد أنشأ قصيدة تصور عدم رضا إبليس عن أي تنظيم وحدوي يؤدي إلى التآخي والتآلف، فقال على لسان إبليس:

حرية القوم أفسدت خدعي

لم تبق لي في الأنيس منخدعا





إن منعت لذة حفزت لها
فكيف حفزي من لم يكن منعا؟

أو حجبت شهوة أزينها
فكيف تزيين ظاهر سطعا؟

وإن طغى ظالم له خنعوا
فكيف يطغى إن عز من خنعا

لو دام هذا البلاء واتسعت
حرية القوم ضاق ما اتسعا

واستغنت الأرض والسماء معاً
عن الشياطين فانطووا جزعا

ما حاجة الأرض للأبالس في
عهد نضا الخوف عنه والخشعا

وكيف تغدوهم بلا عمل
وهي على السعي شأنها اجتمعا

○○○○○

المحكمة التجارية وقضاة القانون

والقانون الوضعي كما هو معروف، هو مرجع قضاة العالم عدا دول قليلة جداً على رأسها بلدنا - المملكة العربية السعودية - التي تحكم محاكمها بما أنزل الله في كتابه العزيز «الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل العزيز الحكيم» وبما جاء في سنّة رسول الله ﷺ.

ولهذا فإن جميع ما يصدر من أحكام عن محاكم بلادنا السعودية لا يساور أطراف من يشملهم أي حكم أي شك في صحة ذلك الحكم. وإنما يجد قبولاً وتسليماً بما جاء فيه. وذلك إيماناً منهم بأن تلك الأحكام موافقة لما جاء في هدي القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة.

وأما الدول التي يحكمها القانون الوضعي الذي وضعت مواده وبنوده وفقراته باجتهادات فكرية بعيدة كل البعد في معتقداتها عن تعاليم السماء، فإنها وكما هو مشاهد عرضة للانتقاد، فكم سمعنا بأن الدولة الفلانية عدلت من قانونها تعديلاً يتمثل في الشطب أو الإضافة، أما قضاتها الذين يحكمون بتلك القوانين، فإن أصابع الاتهام الناطقة بالشكوى والتظلم من الحيف والجور تشير إليهم في كل قضية يحكمون فيها.

يقول طانيوس عبده في قصيدة طويلة تدور حول محكمة تجارية:

إذا ما رمت في دعوى خساره
فقدمها لمحكمة التجاره

ويقرر أن تلك المحكمة تضم قضاة يحكمون لمن يرشيهم وتكون رشوته أكثر من رشوة صاحبه:



هـنـاك تـرى حـقـوقـك مـظـلـمـات
ولـيـس سـوى الـرشـا فـيـهـا مـنـاره

ويصف مبنى تلك المحكمة بأنه كان يقصد منه إقامة العدل بين المتخاصمين، لكن واقعه أصبح خلافاً لذلك، وذلك بفعل ما ضمه من قضاة هدموا معناه بظلمهم وجورهم:

مـكـانـاً قـد بـنـي لـلـعـدل لـكـن
بـسـوء فـعـالـهـم هـدمـوا مـنـاره

ويشير طانيوس عبده في نفس القصيدة إلى أن تلك المحكمة بما فيها رئيسها تتاجر بالأحكام وتجعل الحكم في المزاد الرشوي حتى يرسو على الأكثر رشوة:

تـرى فـي صـدر نـاديـهـم رئـيـسـاً
يـتـاجـر بـالـحـقـوق ولا خـسـارة

إشـارتـه الـخـطـاب الـفـصـل لـكـن
تـبـاع وتـشـتـرى تـلـك الإشـارة

ويذكر صفة استقبال رئيس المحكمة لصاحب الدعوى، وما فيها من بشاشة وتلطف مقنع بالأطماع:

إذا مـا جـاءه رجـل بـدعـوى
وذلـك عـنـده أحـلـى بـشـاره

يـبـش إلـيـه والأكـيـاس مـلأى
ويـطـرده ومـا فـي الـكـيـس بـاره

يـبـيـع ضـمـيـره بـالـمـال بـخـسـاً
وبـئـس الـمـال يـلـبـس مـنـه عـاره

○○○○○



غاندي مصراع باب وحدة الهند

من يتفانى في خدمة أمته وبلده، ويسعى للنهوض بها، ويحرص على توحيد كلمتها يعد مواطناً صادق المواطنة، وعضواً يعتز به مجتمعه.

والذين تبرز أسماؤهم على خريطة حب الوطن والاستبسال من أجل الرقي به يكون لهم صدى في أذن الدنيا، وتتجه نحوهم أنظار الناس إكباراً وتقديراً لوطنيتهم.

والذي يتتبع سير الأمم ويتابع أحداث العالم يجد أسماء بارزة في مجال المغالاة في حب الوطن لا حصر لها، ويدرك بأنها حققت بفعل حبها له مصالحاً قد نَعِمَ بجنيها كل المنتمين إليه واستفاء بوارف ظلها كل مقيم به..

وغاندي واحد من الذين سجل لهم التاريخ بطولاتهم التي كانوا ينشدون بها الاستقلال بمصالح أوطانهم، والعيش على أرضه بكل حرية وأمن وأمان، وهو أيضاً واحد من الذين نابذوا الاستعمار ودمروه، وقاوموا بصدق عزيمتهم وإخلاصهم لوطنهم كل دواعي الفرقة والانشقاق، وسعوا لتوحيد الكلمة وهم يعلنون غضبهم على الاستبداد والظلم ورفضهم لكل وصاية دولية تحد من النشاط الفكري، وتزرع الخمول والكسل في الشعوب الفقيرة حتى يدعها شعوباً مستطعمة تمد يدها إلى ذلك المستعمر المستبد طالبة منه العون بنظرات منكسرة وبرأس قد حناه ذل المسألة.

والشاعر الكويتي عبد الله سنان، المولود عام ١٩١٧م، واحد من

الشعراء الذين يشيدون بكل متفاني في حب وطنه، وبكل مشمر عن ساعده لخدمة أبنائه.

وقد نظم قصيدة طويلة عنوانها: «غاندي» أشار فيها إلى كفاح غاندي من أجل بلاده، منها قوله:

أذهبت روحك في البلاد شعاعاً
ومشيت في الجمع الغفير مطاعا

دوى نداؤك في المدائن والقرى
فتقاطرت تلك الجموع سراعا

إن سرت ساروا أو وقفت توقفوا
أو قلت أصغوا نحوك الأسماعا

أو صمت صام القطر قاطبة وإن
أفطرت أفطر وازدرى الأوضاعا

ما أوصدوا باباً بوجه موارب
إلا وكنت لبابهم مصراعا

أقسمت أنك للبلاد محرر
ولسوف تبقى ما حييت دفاعا

ولقد رأيتك في المسيرة رافعا
يدك النحيلة تنذر الإقطاعا

ودعوت شعبك أن يكون مثابراً
ويقاطع المستعمر الخداعا

○○○○○

الإهمال يسبّب العمى

العذر يقبل من الرعيل الأول عندما يعزو أحدهم ذهاب بصره إلى عدم وجود طبيب معالج للمرض الذي أصاب عينيه وتسبب في ذهاب بصرهما.

وهذا تعليل سليم وعذر مقبول، لأن الطب كان في ذاك الوقت بدائياً والطبيب الماهر أنذاك نادر الوجود. وإذا وجد فعمله ربما أنه كان مقصوراً على طبقة معينة من الناس، بالإضافة إلى عدم وجود آلات استكشاف دقيقة لتصوير مواضع الألم.

أما زماننا هذا فإنه قلما يذهب بصر المرء إلا من إهمال وتساهل خاصة من الأباء الذين لا يلقون اهتماماً بما تصاب به أعين أبنائهم من آلام حين بدايتها بل إن بعضهم يتركها على أنها عارض سيزول، فتطول به مدة التساهل حتى يستفحل الداء استفحالاً تصعب معه فعالية الطب، ويقف أمامه الطبيب المتخصص عاجزاً عن معالجته.

ومثل هذا الذي يفقد بصره بالطريقة التي ذكرتها في زماننا هذا، فإنه لا يقبل من والده عذراً بأي حال من الأحوال، لأن المصحات والعيادات الطبية والمستشفيات منتشرة في طول البلاد وعرضها، والأطباء متواجدون، والطب متقدم، والعلاج متوفر توفراً لا يدع عذراً لمعتذر، بل إن لومه مباح، وتأنيبه على تساهله وعدم مبالاته مستباح.

وللشاعر الكويتي عبد الله سنان المولود عام ١٩١٧م، مساهمة شعرية في معالجة هذه القضية حيث قال قصيدة طويلة وصف فيها حالة أعمى كان الإهمال سبباً في عماه، من تلك القصيدة قوله:

يمشي وئيداً كمن في القيد أثقله
جر الحديد وأضناه مقيده

وقفت أسأله عن ضيف مقلته
هذا الثقيل الذي قاساه مرقده

وقوله منها:

وقال لي أن لي سبعاً أعيش بها
في جنح ليل ممض طال سرمده

فآلم العين إهمال أضر بها
وأصبح البصر المحبوب تجحده

كم راح ينصحني من قد وثقت به
وازداد عند انقطاعاتي تردده

وقلت دعني وما يأتي الطبيب به
فنصحك المر هذا لا أؤيده

فصرت في حالة ترثى لصاحبها
أعمى يذيب الصفا القاسي تنهده

هذا نتيجة إهمالي فحض على
سلامة الجفن فالإهمال يفسده

○○○○○

كأن... عند شوقي

كنت قد أشرت في موضوع سابق... عنوانه ـ كأن... عند ابن المعتز ـ إلى أنني سآتي بتشبيهات شوقي بكأن في الأبيات المتوالية التي جاءت ضمن قصيدته البائية «صدى الحرب» والتي رأى عبد العزيز سيد الأهل ـ الذي أجرى دراسة على أدب ابن المعتز وعلمه ـ أنها أقل مستوى من تشبيهات ابن المعتز التي سبق ذكرها وبَنَيْتُ شكِّي في نسبتها لابن المعتز وذلك بإشارتي إلى وجود القصيدة بكاملها في «ديوان ابن هاني الأندلسي» وعدم وجودها في «ديوان ابن المعتز».

أما رأيي في المفاضلة بين تلك الأبيات التي نسبها عبد العزيز سيد الأهل لابن المعتز، وبين أبيات شوقي أو ابن هاني الأندلسي التي تقدمت تحت ـ كأن... عند ابن هاني الأندلسي ـ فليس كرأي عبد العزيز، إذ إني لا أفضل شاعراً على آخر في هذا المجال بالذات؛ لأن الأغراض التي من أجلها يركب الشعراء التشبيه بكأن تختلف من شاعر لآخر والظروف التي تملي على الشاعر انتهاجها تختلف... فظروف ابن المعتز ووضعه الاجتماعي وتطلعاته القيادية ليست كظروف شوقي أو ابن هاني الأندلسي إذ أن لكل منهم نهجه وأسلوبه الذي يعالج به حالة عصره ويتفق مع تطلعاته المنسجمة مع حياة عصره. وها هي ذي أبيات شوقي وفقاً لشرطي لتأليف هذا الكتاب وعلى الذي يريد الاطلاع على القصيدة كاملة الرجوع إلى «ديوان شوقي»:

كـأن أسـود رابـضـات كـأنـهـم

قطيع بأقصى السهل حيران مذنب

كأن خيام الجيش في السهل أينق

نواشز فوضى في دجى الليل شزب

كأن السرايا ساكنات موائجاً

قطائع تعطي الأمن طوراً وتسلب

كأن القنا دون الخيام نوازلا

جداول يجريها الظلام ويسكب

كأن الدجى بحر إلى النجم صاعد

كأن السرايا موجه المتضرب

كأن المنايا في ضمير ظلامه

هموم بها فاض الضمير المحجب

كأن صهيل الخيل ناع مبشر

تراهن فيها ضحكاً وهي نُحّب

كأن وجوه الخيل غراً وسيمة

دراري ليل طُلعَ فيه ثقَّب

○○○○○

أسف عجيب

ضمن الشاعر أحمد الصافي النجفي ديوانه «الشلال» قصيدة عجيبة وغريبة الأسلوب. والعجيب فيها أنه رثى شخصاً ثقيلاً يكرهه، أما الغريب فيها فهو تمنيه أن لا يموت ذلك الشخص الذي نصبه للهجاء حتى يستمر في هجائه، لأنه كما قال: يلهمه عبارات الهجاء؛ ولأنه أيضاً لم يستكمل هجاءه له بعد... يقول من تلك القصيدة:

كأنك كنت تخشى من هجائي
لذاك أراك عجلت النزوحا

هجوتك، أم رثيتك لست أدري
ولكني شفيت بي الجروحا

ثم يقول مخاطباً المهجو: إن موتك ليس بالهين علي؛ لأن الهجو بعدك سيموت حيث لا أجد أحداً غيرك من الناس أهجوه:

يموت الهجو بعدك يا حماه
ويسكن من فناك له ضريحا

وفي موضع آخر من القصيدة يقول:

لقد فجع الهجا بك شر ميت
فكاد لرزئه بك أن ينوحا

ثم يقول في مكان آخر من القصيدة نفسها: إن موتك ـ ويعني بالطبع الثقيل الذي أشار إليه ـ قد أحدث دملاً في قلبي حيث تعطلت لغة الهجاء لديَّ فأوجع تعطلها قلبي:

لـفـقـد هـجـاك دمـلـة بـقـلـبـي
يـظـل لـهـا الـحـشـا مـنـي جـريـحـا

وفي أحد أبيات تلك القصيدة يظهر النجفي أسفه، لأن ذلك الثقيل رحل من الدنيا وهو لم يسمع بقية الهجاء، ولهذا نرى النجفي يستوقفه ليعطيه البقية ثم يناوله المديح - وأي مديح يا ترى؟ - لا أظنه إلا نوعاً من الهجا لم يسمعه فيتوهمه ذلك الثقيل مديحاً:

رحـلـت ولـم أكـمـل فـيـك هـجـوي
فـقـف أكـمـلـه ثـم خـذ الـمـديـحـا

ثم يسأله، هل سيلتقي به يوم الحشر ليسمعه هجواً مريحاً، ولكن مريحاً لمن يا ترى؟ بالطبع يكون مريحاً للهاجي؛ لأنه توعده بأن سيصفع وجهه إذا قابله يوم القيامة:

فـهـلا ألـتـقـي بـك يـوم حـشـر
لـتـسـمـع فـيـك لـي هـجـواً مـريـحـاً
سـأصـفـع في الـقـيـامـة مـنـك وجـهـاً
إذا قـابـلـت هـيـكـلـك الـكـسـيـحـا

○○○○○

فني العطر وبقي الشعر

لا يكاد المرء يفتح ديوان شعر إلا ويجد فيه من المديح ما يجد، وإذا تتبع موجبات ذلك المديح ودواعيه وجد أن معظمه كان استدراراً لأكف الكرماء أو شكراً على مكرمات نالها الشاعر من الأسخياء.

والذي تتكرر في معناه الإشارة في كل مناسبة هو أن المادة تذهب والمديح خاصة إذا كان شعراً ذا قيمة ومن شاعر ذي مكانة، هو الذي يبقى على صفحات التاريخ شاهداً على كرم الممدوح وناطقاً بسخائه وجوده.

ولقد اعتنى كثير من المؤلفين بجمع بعض الطرائف الشعرية التي كان السخاء وإهداء الهدايا والتحف من أهم وجودها، ومن أبرز أسباب بقائها.

ولقد ألف الأخوان أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد ابني هاشم الخالديين كتاباً سمياه «التحف والهدايا» جاء فيه أن أحمد بن جعفر البرمكي، وهو أبو الحسن جحظة البرمكي، قال: أهدى سعيد بن حميد الكاتب إلى أبي هفان قارورة من ماء الورد الفارسي، فكتب إليه أبو هفان أبياتاً من الشعر، منها قوله:

بعثتها حالية النحر
بكراً وكل الخير في البكر

ملفوفة في حلل هن من
خضر ومن صفر ومن حمر

ومنها قوله:

بيضاء في زرقاء كالشـ
مس إذ تطلعت من زرقة الفجر

كجامد الياقوت أقطاره
مملوءة من ذائب الدر

ومنها قوله:

ما حضرت والعطر في مجلس
إلا وكانت ربة العطر

نابت عن الورد كما نبت عن
أبيك في العز وفي القدر

فعاد ذا منها إلى غصنه
وقام ذا عنك من القبر

إن أنت حييت بها مسكة
فمثلها الأبيات في النشر

○○○○○

البقاء للمدح والثناء

لا يختلف اثنان في أن المدح والذم يجيء ثمرة فعل أو قول أو عمل، لأن اللسان المادح أو القادح لا يتحرك ما لم يكن هناك أسباب أوحت إليه بذلك.

والعطاء والبذل من الأشياء التي تحرك المشاعر وتوجب الثناء والمدح فتجود القرائح وتكيل المدح نثراً وشعراً.

والمتفضل على الناس ذو الكف الندي والنفس السخية هو الذي يفوز بصادق عبارات المدح، وإليه تلقي الأشعار أعنتها واسمه يتردد في أبياتها. حتى إذا دارت الأيام ودالت دولته ودولة مادحه ولم يبق لكل إلا الاسم والذكرى وأخذ الناس من بعدهم في تتبع الآثار وتصفح التراث والأخبار والأشعار، وجدوا صادق التعبير في مواقف وقصص وحكايات أتى عليها الدهر واحتفظت بها بطون الكتب حينما طوتها الأيام لتكون شهادة على ما كان من كرم وسخاوة.

والشعر في هذا الميدان قد أخذ مساحة كبيرة ونال حظاً وافراً من العناية والاهتمام بالحفظ، فمن ذلك نجد ما قاله حجية بن المضرب يمدح يعفر بن زرعة أحد ملوك قبيلة رمان العربية باليمن. منها قوله:

فنقب عن الملوك واهتف بيعفر
وعش جار ظل لا يغالبه الدهر

أولئك قوم شيد اللّه فخرهم
فما فوقه فخر وإن عظم الفخر



أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه
فأيديهم بيض وأوجههم زهر
يصونون أحساباً ومجداً مؤثلاً
ببذل أكف دونها المزن والبحر
سموا في المعالي رتبة فوق رتبة
أحلتهم حيث النعائم والنسر
أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت
لنورهم الشمس المنيرة والبدر
فلو لامس الصخر الأصم أكفهم
لفاضت ينابيع الندى ذلك الصخر
ولو كان في الأرض البسيطة منهم
لمحتبط عاف لما عرف الفقر

○ ○ ○ ○ ○

فيض من الابتهالات

يخلو الشاعر الذي يغمر قلبه ضياء الإيمان بنفسه سويعات يستحضر خلالها حساً إيمانياً يوحى إليه بالتوجه إلى الله في عبارات شعرية لها ترنيمة خاصة، وإيقاعات ينسرب صداها إلى أعماق النفس فيكون لها رجع في أرجاء تلك الخلوة وفيض يقطر شذاه سويعات التأمل في ملكوت السماوات والأرض. فتكون حصيلة ذلك التأمل قصيدة ذات طابع روحي يستقطب فيها الشاعر أرق عبارات التوسل إلى الله والترحم والتذلل، وكل ما تستطيع أن تمليه عليه نفسه الطامعة في رحمة الله وكرمه وجوده من توسلات وابتهالات إلى الله.

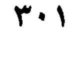
ثم إنه يذكر في تلك السويعات واقع الوحي الإلهي الذي جاءت به الرسل مبشرة ومنذرة فيأخذ في الترجي بما بشرت به من خير وسعادة أبدية، والخوف والخشية مما أنذرت به من شقاوة وعذاب وسوء حساب.

والابتهالات والتسابيح التي ينظمها الشعراء أكثر من أن تحصر، وهذه واحدة من تلك الابتهالات، نظمها الشاعر السعودي يحيى توفيق، وجعل عنوانها «ابتهالات»، وقد بلغ بها اثنين وأربعين بيتاً. مطلعها:

يا سيدي عصفت بي الأهواء
واستعبدتني نزوة رعناء

ومنها قوله:

مولاي لا شكوى فإنك عالم
تدري بما فعلت بي الأرزاء





ومنها قوله:

يا سيدي أنت الملاذ ليائس
ضاقت على سعة به الأرجاء

إن تعف عن ذنبي وتغفر زلتي
فالعفو منك سجية وحباء

كم دمعة أهرقتها متوسلا
والليل حولي غابة سوداء

أذللت دمعي في رضاك توسلا
أفلا يفيد تذلل وبكاء

ومنها قوله:

إن كان خلقك قد يعف أميرهم
يوماً ويرحم من إليه أساؤوا

أفلا أؤمل في رضاك وأرتجي
مولاي من ذلت له الأمراء

○ ○ ○ ○ ○

إلهــي

هناك قصيدة أستطيع أن أسميها «ابتهالية» نسبت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، قوامها ثمانية وعشرون بيتاً، كل بيت منها مصدَّر بـ«إلهي» ما عدا مطلعها والبيتين الأخيرين منها.

وهذه القصيدة ضمن مجموعة قصائد تحت عنوان: «ديوان أمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين الإمام علي بن أبي طالب» قال الأستاذ عبد العزيز كرم: إنه قام بجمعها وترتيبها عام ١٣٨٠هـ.

أما أصحاب الأقلام الواعية والمتتبعة لما يصدر من الإصدارات التي لها علاقة بالتراث فقد ذكروا أنه قد تسابق على ديوان علي رضي الله عنه، وادعى جمعه عدد لا بأس به، والفضل يرجع للمتقدم، وهو صاحب الطبعة الأولى التي ظهرت عام ١٢٥١هـ، وهي طبعة حجرية في ٧٦ صفحة.

ثم توالت على تلك الطبعة الأقلام التجارية، والتي منها ما يضاف ومنها ما يحذف من أجل تغيير ملامح الطبعة الأولى، ليس إلا.

ولعل أكثر الالتباس يحدث في شعر الشافعي رحمه الله.

وحول هذا الموضوع المتعلق بتعدد مؤلفي شعر علي كرم الله وجهه؛ قرأت نشرة في العدد ٧٨٠٨، وتاريخ ١٠ ربيع الآخرة عام ١٤١٠هـ، تشير إلى أنه حدث تعدي على النسخة الأولى التي ضمت قصائد علي كرم الله وجهه المنسوب منها والصحيح، حيث ادعى عدد من أصحاب الأقلام التجارية أنه هو الذي قاسى العناء في التقاط القصائد من بطون كتب التراث والمراجع، بينما أنه لم يشر إلى مرجع واحد.



ومن أولئك الذين ادعوا أنهم قاموا بجمع تلك القصائد؛ عبد العزيز سيد الأهل، ومحمد رضا، وعبد العزيز كرم. ثم جاء نعيم زرزور ونقل نسخة كرم وزعمها لنفسه، كما نقل الدكتور محمد عبد المنعم الخافجي نصوص تلك النسخ مع تغيير وتبديل في مواقع القصائد وبتر بعض المقاطع، وزعم أنه مؤلفها وصاحبها المبدع في تأليفها.

ويبقى قول المعتدلين الذين لا يرون في زيادة نسبة الشعر لعلي ما يزيد أو ينقص مما هو عليه من فضل وكرم من الله.

وهذا لا يعني أننا ننفي عنه قول الشعر، ولكنه ليس في مجال الشعر كحسان بن ثابت، بدليل أنه رغب في الرد على المشركين، فلم يرى النبي ﷺ ذلك، وإنما أسند أمره - وأعني بذلك الشعر - إلى حسان، وأمره بمراجعة أبي بكر رضي الله عنه ليخبره أخبارهم وما فيها من مثالب وجروح.

أما القصيدة التي أشرت إليها آنفاً، فمنها هذه الأبيات:

إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي
إليك لدي الأعسار واليسر أفزع

إلهي لأن جلت وجمت خطيئتي
فعفوك عن ذنبي أجل وأوسع

إلهي لأن أعطيت نفسي سؤلها
فها أنا في أرض الندامة أرتع

إلهي ترى حالي وفكري وفاقتي
وأنت مناجاتي الخفية تسمع

إلهي فلا تقطع رجائي ولا تزغ
فؤادي فلي في سيب جودك مطمع

إلـهـي لإن خـيـبـتـنـي أو طـردتـنـي
فـمـن ذا الـذي أرجـو ومـن لـي يـشـفـع

إلـهـي أجـرنـي مـن عـذابـك إنـنـي
أسـيـر ذلـيـل خـائـف لـك أخـضـع

إلـهـي فـآنـسـنـي بـتـلـقـيـن حـجـتـي
إذا كان لي في القبر مثوى ومضجع

○ ○ ○ ○ ○



فهرس الجزء الثالث من الأدب المثمن